الذكريات الطيبة، واننا بفضل هذه الخدعة نتمكن من احتمال الماضي. ولكنه حين عاد ورأى من شرفة السفينة رابية الحي الاستعماري البيضاء، وطيور الرخمة الجاثمة فوق السطوح، وملابس الفقراء المنشورة لتجف على الشرفات، حينئذ فقط أدرك إلى أي حد كان ضحية سهلة لأحابيل الحنين الخادعة.

شقت السفينة طريقاً لها في الخليج عبر فرشة طافية من الحيوانات الغارقة، والتجأ معظم المسافرين إلى القمرات هرباً من الرائحة النتنة. نزل الطبيب الشاب من السفينة على جسر المرور الصغير مرتدياً بدلة كاملة من الألبكة، مع صدرية وواقية من الغبار، بلحية كلحية باستور شاب وشعر مفروق من وسطه بفرق واضح وشاحب، وبسيطرة كافية لاخفاء عقدة الحنجرة التي لم يكن سببها الحزن، وانما الرعب. كان الميناء شبه خاو، يحرسه جنود حفاة بلا زي عسكري، وكانت شقيقتاه وامه ينتظرن برفقة أحب أصدقائه إليه. وجدهم شاحبين وبلا مستقبل، رغم مظهرهم الدنيوي، وكانوا يتحدثون عن الازمة وعن الحرب الأهلية كأمر بعيد وغريب، ولكن اصواتهم جميعاً كانت تشي برعشة مراوغة، وحدقات عيونهم بلمعة يقين تخون كلماتهم. وكانت أمه هي الاكثر من اثار شفقته. تلك المرأة التي [illegible] نفسها على الحياة وهي لا تزال فتية بأناقتها واندفاعها الاجتماعي، يراها الآن تذوي على نار هادئة وسط روائح الكافور التي تعبق من ملابسها كأرملة. ولا بد أنها رأت نفسها في اضطراب ابنها، فسارعت تسأله وكأنها تدافع عن نفسها، لماذا هو عائد بهذه البشرة الشفافة كالبارافان.

وقال لها :

- انها الحياة يا أماه. فالمرء يتحول أخضر في باريس.

بعد ذلك، وفيما هو إلى جانبها يغرق في حر العربة المغلقة، لم يعد يحتمل قسوة الواقع الذي ينفذ اليه غلياناً من النافذة. كان البحر يبدو وكأنه من رماد، وقصور النبلاء القديمة كانت على وشك الانهيار أمام تكاثر المتسولين، وكان العثور على رائحة الياسمين اللاهبة فيما وراء ابخرة المجارير المكشوفة مستحيلا. كل شيء بدا له أضأل مما كان عليه عند ذهابه، وأشد فقراً وكآبة. وكانت هناك أعداد كبيرة من الجرذان الجائعة في مزابل الشوارع تجعل حصاني العربة يجفلان فزعين. وعلى امتداد الطريق الطويل من الميناء الى البيت، في حي البريتس، لم يجد ما هو جدير بمشاعر الحنين التي كانت تملاه. رأى نفسه مهزوماً، فأدار وجهه كي لا تراه أمه، وأطلق لبكائه الصامت العنان.

لم يكن قصر المركيز دي كاسالدويرو القديم، مقر الاقامة التاريخي لآل اوربينو دي لا كايه، بالقصر الذي مازال يحتفظ بشموخه وسط الانهيار. وقد اكتشف الدكتور خوفينال اوربينو ذلك وقلبه يتفتت مذ عبر الدهليز المظلم ورأى نافورة الحديقة الداخلية المنيرة، والاعشاب البرية التي بلا أزهار تعيث بها السحالي، وانتبه الى نقص عدد كبير من بلاط المرمر، اضافة الى تهشم عدد من درجات السلم الرخامي الفسيح ذي الدرابزين النحاسي الذي يقود الى الحجرات الرئيسية. لقد مات والده، الذي كان طبيبا متفانيا اكثر منه عالما، في جائحة الكوليرا الاسيوية التي محقت السكان منذ ست سنوات، ومعه ماتت روح البيت. فدونيا بلانكا، الام، المختنقة بحداد أبدي، استبدلت السهرات الغنائية والحفلات الموسيقية بصلوات مسائية يومية لذكرى الزوج المتوفى. وتحولت الشقيقتان رغم طبيعتيهما وميلهما الاحتفالي الى وقود للدير.

لم يغف الدكتور اوربينو لحظة واحدة في ليلة وصوله، مرتعبا من الظلمة والصمت. وردد صلاة الروح القدس بعدد ثلاث سبحات وكذلك كل الصلوات التي يذكرها لدرء الزرايا والانهيارات وانواع المصائب الليلية الاخرى، فيما دخل كروان الى حجرة النوم من النافذة غير المحكمة، وأخذ يصدح كل ساعة، عند تمام الساعة بالضبط. وعذبته صرخات الهذيان التي تطلقها المجنونات في مستشفى الراعية الالهية للمجاذيب، والقطرة عديمة الرحمة التي ترشح من الجرة الفخارية الى الجفنة ويملأ صداها جو البيت، وخطوات الكروان الطويلة التائهة في حجرة النوم، وخوفه الخِلْقي من الظلمة، والحضور اللامرئي للأب الميت في البيت الرحب الهاجع. عندما صدح الكروان في الساعة السادسة، مرافقا بذلك ديكة الجوار، أسلم الدكتور اوربينو نفسه جسدا وروحا الى كنف العناية الالهية، لانه لم يعد يشعر بالحماس للحياة يوما اخر في وطنه المنهار أنقاضا. ولكن عطف ذويه، وأيام الآحاد الريفية، وتملقات عازبات طبقته الجشعة خففت كلها من مرارة الوهلة الاولى. واخذ يعتاد شيئا فشيئا على قيظ تشرين الاول، وعلى الروائح الحادة، وعلى اراء اصدقائه المبكرة: غداً نرى يا دكتور، فلا تبال، الى ان انتهى للاستسلام الى شعوذة العادة. ولم يتأخر طويلا في وضع تبرير بسيط لخذلانه. وقال ان هذه هي دنياه، دنياه الكئيبة والجائرة التي منحه الرب اياها، وهو مدين لها.

اول ما فعله هو الاستيلاء على عيادة أبيه. احتفظ بالاثاث الانكليزي نفسه في مكانه، ذلك الاثاث الصلب والصارم، الذي تتنهد أخشابه مع برودة الفجر، لكنه بعث الى حجرة المهملات مؤلفات العلوم من زمن الحكام الاستعماريين وكتب الطب الرومنطيقي، ووضع في الخزائن ذات الواجهات الزجاجية كتب المدرسة الفرنسية الجديدة. وانتزع عن الجدران جميع الرسوم الباهتة، باستثناء رسم الطبيب الذي ينازع الموت مريضة عارية، وقسم أبقراط

المكتوب بحروف قوطية، وعلق مكانها، الى جانب شهادة والده الوحيدة، الشهادات الكثيرة والمتنوعة التي نالها من مدارس أوربية مختلفة.

حاول ان يفرض معايير تجديدية في مستشفى الرحمة، ولكن الامر لم يكن بالبساطة التي ظنها وهو في اندفاع الشباب. فبيت الطب القديم المتمسك بخرافاته الموروثة، مثل وضع قوائم الاسرة في أوعية مليئة بالماء لمنع صعود الامراض اليها، أو المطالبة بارتداء ملابس الاتيكيت وقفازات الشمواة في صالة الجراحة، اذ كان الاعتقاد السائد حينئذ هو ان الاناقة شرط جوهري للتعقيم. وما كانوا يطيقون تذوق الطبيب الشاب القادم حديثا، بول المريض ليكتشف وجود السكر، او استشهاده بآراء شاركوت وتروسو كما لو كانا زميلاه في الحجرة، وتحذيره الصارم في درسه من مخاطر اللقاحات القاتلة وايمانه مقابل ذلك ايمانا مريبا بالاختراع الجديد المدعو تحاميل. لقد كان يتعثر بكل شيء: روحه المجدده، تحضره الجنوني، وميله البطيء لفهم المزاح في أرض المزاح السرمدي. وكانت جميع فضائله الملموسة تثير في الحقيقة حسد زملائه الكبار وسخرية المنافقين من الشباب.

كان وضع المدينة الصحي هو هاجسه الدائم. فلجأ الى أعلى المراتب مطالباً بردم المجاري المكشوفة منذ العهد الاستعماري، والتي تشكل مرتعا رحبا للجرذان، واقامة مجاري مغلقة بدلا منها لا تصب بقاياها في خليج السوق، كما هو الحال منذ الازل، وانما في مجمع ناء للفضلات. كانت توجد في البيوت الاستعمارية حسنة التجهيز مراحيض ذات حفر عميقة تتخمر فيها الفضلات، أما ثلثا الاهالي المكدسين في اكواخ على ضفاف المستنقعات فكانوا يقضون حاجتهم في العراء. فكان البراز يجف تحت الشمس، متحولا الى غبار، يتنفسه الجميع ببهجة فصح مع نسمات كانون الباردة السعيدة. لقد حاول الدكتور خوفينال اوربينو ان يفرض في المجلس الاداري اقامة دورة تأهيل اجبارية، كي يتعلم الفقراء بناء مراحيضهم الخاصة. وناضل دون جدوى لوقف رمي النفايات بين أشجار المنغلار، التي تحولت منذ قرون الى مستودعات عفونة، ولجمع تلك النفايات مرتين في الاسبوع على الاقل واحراقها في مكان مهجور.

لقد كان واعيا لشرك مياه الشرب القاتل. لكن مجرد التفكير ببناء شبكة مائية كان يبدو فكرة خيالية، لأن من يستطيعون دعمها كانوا يملكون ابارا تحت الارض يخزنون فيها مياه أمطار سنوات عديدة تحت قشدة كثيفة من الاخضرار الطحلبي. ومن بين ابرز قطع اثاث تلك الحقبة كانت خزائن تصفية الماء المصنوعة من خشب منقوش، حيث تقطر مساماتها الحجرية ليل نهار في الخوابي. ولمنع أي كان من شرب الماء بطاسة الالمنيوم التي يخرجون بها الماء، كانوا يسننون حواف تلك الطاسة لتبدو وكأنها تاج ملك المساخر. كان الماء رائقا وبارداً

في عتمة الفخار، يترك في الفم طعما كطعم الزهر. لكن الدكتور خوفينال اوربينو لم يكن لينساق وراء خدع النقاء هذه، لانه يعرف ان قاع الخوابي، رغم كل الاحتياطات، كان هيكلا لكل انواع الدويبات. لقد أمضى ساعات طفولته البطيئة وهو يتأملها باندهاش شبه صوفي، مقتنعا مثل معظم الناس حينئذ ان الدويبات هي الارواح، وانها مخلوقات ماورائية تزف الى الانسات من رواسب المياه الراكدة، وانها قادرة على الاتيان بانتقامات حب خانقة. لقد رأى وهو طفل خراب بيت لازار كوندي، معلمة المدرسة التي تجرأت على صد الارواح، ورأى نتف الزجاج المنثور في الشارع وأكوام الحجارة التي قذفت طوال ثلاثة أيام وثلاث ليال على النوافذ. ولقد انقضى وقت طويل قبل ان يتعلم ان تلك الدويبات هي في الحقيقة يرقات ذباب الزنكودو، لكنه تعلم ذلك كي لا ينساه ابدا، لانه أدرك منذ ذلك الحين أن ليس الدويبات وحده، وانما أرواح شريرة اخرى كثيرة، قد تمر بسلام عبر مصافينا الحجرية الساذجة.

لقد عزي فتق كيس الخصية خلال زمن طويل وبفخر شديد الى مياه آبار الجمع، ذلك الفتق الذي يصبر على احتماله عدد كبير من رجال المدينة ليس دون خجل فحسب، بل وبنوع من الكبرياء الوطنية أيضا. وعندما كان خوفينال اوربينو طفلا يذهب الى المدرسة الابتدائية، لم يكن يستطيع كبح اختلاجة الرعب لدى رؤيته المفتوقين وهم يجلسون امام ابواب بيوتهم في الامسيات الحارة، ويهوون بمروحة يدوية على الخصية الضخمة كما لو كانت طفلا ينام بين افخاذهم. وكان يشاع ان الفتق يحاكي تغريد عصفور حزين في الليالي العاصفة، وانه يتلوى بألم لا يطاق حين يحرقون قريبا منه ريشة طائر رخمة، لكن احدا لم يكن يتذمر من تلك المحن، لان فتقا كبيرا ومحتملا بصبر هو شرف للرجل قبل كل شيء، عندما رجع الدكتور خوفينال اوربينو من اوربا كان يعرف جيدا التفسير العلمي لهذه المعتقدات، ولكنها كانت متأصلة في الايمان الخرافي المحلي الى حد دفع الكثيرين لمعارضة اغناء مياه الابار بالمعادن خوفا من ان ينزعوا منها خاصية تسبيب فتق مشرف.

وكقلقه من تلوث المياه، كان الدكتور خوفينال اوربينو قلقا كذلك للحالة الصحية في السوق العام، ذلك الامتداد الفسيح مقابل خليج لاس اينماس، حيث ترسو سفن جزر الانتيل الشراعية. والذي وصفه أحد الرحالة الشهيرين بانه واحد من اكثر الاسواق غنى وتنوعا في العالم. وقد كان غنيا ووافراً وصاخبا حقا، ولكنه ربما كان كذلك اكثر الاسواق مدعاة للقلق. كان يقوم فوق مزبلته ذاتها، تحت رحمة أهواء البحر المرتفع، حيث تجشؤات الخليج تعيد الى اليابسة نفايات المجاري. وكانت ترمى هناك فضلات المسلخ المجاور من رؤوس مقطوعة، واحشاء متعفنة، وروث الحيوانات الطافي بهدوء تحت الشمس في مستنقع

من الدماء. وتأتي طيور الرخمة لتتنازع تلك الفضلات مع الجرذان والكلاب في ازدحام دائم، وسط الغزلان وديوك سوتافينتو المخصية والمعلقة على افاريز العنابر، وخضروات ازخونا الربيعية المعروضة فوق حصر على الارض. وكان الدكتور اوربينو يريد جعل المكان صحيا بنقل المسلخ الى مكان اخر، وتشييد سوق جديد مسقوف بقباب من زجاج ملون كذلك السوق الذي رآه في برشلونة، حيث البضائع والمؤن زاهية ونظيفة حتى ان اكلها يثير الحسرة. ولكن هذا جعل اكثر اصدقائه مجاملة يضيقون ذرعا باحلامه الخيالية. فهم يقضون حياتهم متغنين بأصلهم المجيد، وبمزايا المدينة التاريخية، وقيمة اثارها الدينية، وبطولتها وجمالها، لكنهم لايرون سوس السنين الذي ينخرها. أما الدكتور اوربينو بالمقابل، الذي يكن لها حباً عظيما يجعله يراها بعيني الحقيقة، فكان يقول:

- كم هي نبيلة هذه المدينة التي مافتئنا نحاول القضاء عليها منذ أربعمئة سنة، ولم نتوصل الى ذلك بعد.

ومع ذلك فقد كانوا على وشك القضاء عليها. فوباء الكوليرا الذي سقطت أولى ضحاياه في مستنقعات السوق. تسبب خلال أحد عشر اسبوعا بأعلى نسبة وفيات في تاريخنا. كان بعض الموتى البارزين يدفنون تحت بلاط الكنائس، الى جوار الاساقفة والمستشارين، والاخرون الاقل ثراء يدفنون في فناء الاديرة، أما الفقراء فيمضون بهم الى المقبرة الاستعمارية، على الرابية التي تصفعها الرياح وتفصلها عن المدينة قناة مياه جافة، لجسرها الطيني لوحة بمظلة نحت عليها بأمر أحد الحكام المتبصرين: Lasciate ognisperanza voichentrate في الاسبوعين الاولين للكوليرا فاضت المقبرة، ولم يكن هناك من مكان للدفن في الكنائس، رغم انهم نقلوا الى مستودع العظام العام الرفات المتآكل لعدد كبير من الاعيان الذين ضاعت اسماؤهم. ولقد اختلط هواء الكتدرائية بابخرة سراديب الدفن غير المحكمة الاغلاق، مما اضطرهم الى عدم فتح أبواب الكتدرائية الا بعد ثلاث سنوات، في الحقبة التي رأت فيها فيرمينا داثا للمرة الاولى عن قرب فلورينتينو اريثا في صلاة الفجر. وامتلأ رواق دير سانتا كلارا بالقبور التي وصلت الى الممرات بين اشجار الحور في الاسبوع الثالث، وكان لابد من تحويل بستان الدير، الذي كان اوسع من الرواق بمرتين، الى مقبرة. وحفروا هناك قبورا عميقة ليدفنوا فيها على ثلاث مستويات، على عجل وبلا توابيت، ولكنهم اضطروا للتخلي عنها لأن الارض الطافحة أصبحت مثل اسفنجة ترشح تحت وطء الاقدام دماً فاسداً كريه الرائحة. عندئذ تقرر متابعة عمليات الدفن في لامانو دي ديوس، وهي مزرعة لتسمين الابقار على بعد أقل من فرسخ واحد عن المدينة، والتي كرست فيما بعد باسم المقبرة الكونية.

منذ اذيع بلاغ الكوليرا، بدأ حصن الحامية المحلية باطلاق قذيفة مدفع كل ربع ساعة، في الليل والنهار، ايماناً بالخرافة الحضارية القائلة ان البارود يطهر الجو. ولقد كانت الكوليرا أشد فتكا بين السكان الزنوج، لانهم الاكثر عددا وفقرا، ولكنها في الحقيقة لم تكن تأخذ اللون أو الاصل بعين الاعتبار. وتوقفت فجأة كما بدأت، دون ان يعرف عدد ضحاياها، ليس لان حصرهم كان مستحيلا، وانما لان احدى فضائلنا السائدة هي الحشمة أمام المصائب الخاصة.

لقد كان الدكتور ماركو اوريليو اوربينو، والد خوفينال، بطلا مدنيا في تلك المرحلة المشؤومة، وأبرز ضحاياها أيضا. فاستناداً الى قرار رسمي، وضع الاستراتيجية الصحية وأشرف شخصيا على تنفيذها، لكن مبادراته دفعته للتدخل في كل شؤون النظام الاجتماعي، حتى صار يبدو في أحرج لحظات الوباء انه لا وجود لسلطة فوق سلطته. وعندما راجع الدكتور خوفينال اوربينو، بعد عدة سنوات، وقائع تلك الايام، ثبت له ان منهج ابيه كان يعتمد على العاطفة اكثر من اعتماده على العلم، وانه كان مناقضا للعقل في احيان كثيرة، وبهذا افسح المجال واسعا امام شراهة الوباء. وتأكد له ذلك في عاطفة الابناء الذين حولتهم الحياة شيئا فشيئا الى آباء لابائهم، فتألم للمرة الاولى لانه لم يكن الى جوار ابيه في عزلة اخطائه. لكنه لم يتعرض لجدارة والده... فبنشاطه وتفانيه، وشجاعته الشخصية قبل كل شيء، استحق التشريفات الكثيرة التي قدمت له عندما تخلصت المدينة من الكارثة، وبقي اسمه بجدارة محفوظا الى جانب اعداد من أبطال حروب اخرى أقل نبلا.

لم يعش ليرى مجده. فعندما اكتشف في نفسه الاختلالات التي لا شفاء منها، والتي عاينها ورق لها في الاخرين، لم يحاول حتى مجرد خوض معركة لا طائل منها، وانما ابتعد عن الجميع كي لاينقل العدوى الى أحد. وفي وحدته في احدى غرف الخدمة بمستشفى الرحمة، صاماً اذنيه عن نداءات زملائه وتوسلات ذويه، غير عابيء بهلع الموبوئين المحتضرين في الممرات الغاصة، كتب لزوجته وابنائه رسالة حب محمومة، يمتن فيها لانه جاء الى الوجود، ويكشف لهم كم أحب الحياة وبأي نهم أحس بذلك الحب. كانت رسالة وداع في عشرين ورقة مؤثرة يبدو فيها تقدم المرض في اضطراب الكتابة، ولم يكن ضروريا معرفة لمن كتبت تلك الاوراق لادراك ان التوقيع قد وضع عليها مع النفس الاخير. ووفقا لمشيئته ضاع رماد جسده في المقبرة العامة، دون أن يراه أحد ممن أحبوه.

تلقى الدكتور خوفينال اوربينو برقية الاشعار بالوفاة بعد ثلاثة أيام في باريس، اثناء تناوله العشاء مع اصدقائه، فرفع نخب شمبانيا لذكرى ابيه قائلا: «لقد كان رجلا طيباً». وكان عليه بعد ذلك ان يؤنب نفسه لقلة نضجه. لانه بذلك انما تجنب الواقع لكي لا يبكي. ثم

تلقى بعد ثلاثة أسابيع نسخة من رسالة ابيه، وحينئذ استسلم للواقع. لقد انكشفت له دفعة واحدة وبعمق صورة الرجل الذي عرفه قبل أي رجل سواه، الذي رباه وعلمه، والذي نام وزنى مع امه طوال اثنتين وثلاثين سنة، والذي لم يكن يبدو له مع ذلك جسدا وروحا قبل هذه الرسالة، وذلك لمجرد الاستحياء وحده. لقد كان الدكتور خوفينال اوربينو وعائلته حتى ذلك الحين يتصورون الموت محنة تصيب الاخرين، آباء الاخرين، واشقاء الاخرين وازواجهم، لكنها لاتقرب ذويهم. فهم ذوو حيوات بطيئة، لا يبدو ان الشيخوخة تلحق بهم، ولا المرض أو الموت كذلك، وانما هي حيوات تضمحل شيئا فشيئا في زمانها، متحولة الى ذكريات وضباب زمن اخر، الى ان يبتلعها النسيان. لقد وضعته رسالة ابيه، أكثر من برقية الخبر المشؤوم، وجهاً لوجه مع يقين الموت. رغم ان احدى أقدم ذكرياته، حين كان في التاسعة، أو ربما في الحادية عشرة، هي نوع من المؤشر المبكر الى الموت من خلال ابيه. كانا وحيدين في مكتب البيت مساء يوم ماطر، وكان يرسم قبرات ودوار شمس بالطباشير على بلاط الارضية، فيما والده يقرأ موليا ظهره لضوء النافذة، وصدريته مفتوحة الازرار وعلى كمي قميصه اربطة مطاطية. وفجأة قطع القراءة ليحك ظهره بمحكاك ذي ذراع طويلة تنتهي بكف فضية في طرفها. وحين لم يستطع، طلب من ابنه ان يحك له باظافره، ففعل ذلك يراوده شعور غريب بانه يحس بجسده وهو يحك. واخيرا تطلع اليه ابوه من فوق كتفه بابتسامة حزينة وقال له:

- اذا ما مت الان فانك لن تكاد تتذكرني حين تصبح في مثل سني.

قال ذلك دون أي سبب ظاهر، وطاف ملاك الموت للحظة في ظلمة المكتب البارد، وعاد للخروج من النافذة تاركا وراءه نثارة ريش، لكن الطفل لم يرها. لقد انقضت اكثر من عشرين سنة منذ ذلك الحين، وقريبا سيصل خوفينال اوربينو الى السن التي كان فيها ابوه في ذلك اليوم. كان يعرف انه يشبهه تماما، ولوعيه بانه كذلك، ارتقى الان الى الوعي المرعب في انه سيفنى مثله أيضا.

صارت الكوليرا هي هاجسه. لم يكن يعرف عنها شيئا اكثر مما يتعلمه بشكل روتيني في دورة هامشية، ولم يكن ليصدق بان هذا المرض قد سبب منذ ثلاثين سنة فقط في فرنسا، بما في ذلك باريس، اكثر من مئة واربعين الف وفاة. أما بعد موت ابيه فقد تعلم كل ما يمكن ان يتعلمه حول مختلف اشكال الكوليرا، بشكل اشبه بعقاب النفس لتهدئة ذاكرته، وكان طالبا من طلاب ابرز علماء الاوبئة في ذلك الزمان، ومبتدع الاحزمة الصحية، البروفسور ادريان بروست، والد الروائي الكبير. وبهذا فانه لدى عودته الى وطنه، واحساسه مذ كان في البحر برائحة السوق النتنه، ثم رؤيته الجرذان في المجاري المكشوفة والاطفال الذين يتمرغون عراة

في مستنقعات الشوارع، لم يدرك ان الكارثة قد وقعت بالفعل فقط، بل وأيقن انها ستتكرر في اية لحظة.

ولم يمض وقت طويل. فقبل ان يمر العام طلب منه تلاميذه في مستشفى الرحمة ان يساعدهم بشأن مريض احسان تغطي كل انحاء جسده بقع زرقاء غريبة. وكانت رؤية الدكتور خوفينال اوربينو للمريض من الباب كافية ليتعرف على العدو. ولكن الحظ حالفهم: فالمريض وصل منذ ثلاثة أيام على متن سفينة قادمة من كوراثاو، وقد حضر بنفسه الى العيادات الخارجية في المستشفى، وليس هناك احتمال بان يكون قد نقل العدوى الى سواه. وعلى كل حال، حذر الدكتور خوفينال اوربينو زملاءه، وتمكن من جعل السلطات تنقل الانذار الى الموانيء المجاورة ليتم تحديد موقع السفينة الملوثة واجراء الحجر الصحي عليها، وكان عليه ان يهديء من اندفاع القائد العسكري للموقع، الذي اراد اعلان حالة الطواريء وتطبيق العلاج بقذائف المدفعية كل ربع ساعة في الحال.

وقال له بألمعية عالية:

- اقتصد بالبارود الى أن يأتي الليبراليون. فنحن لم نعد في العصور الوسطى.

مات المريض بعد أربعة ايام، مختنقا بقيء حبيبي أبيض، انما لم تظهر اية حالة اخرى خلال الاسابيع التالية رغم الاستنفار الدائم. بعد ذلك بقليل، نشرت صحيفة دياريو دي كومير يثو خبرا عن طفلين ماتا بالكوليرا في مكانين مختلفين من المدينة. ثم تأكد ان احدهما كان مصابا بالديزنطاريا العادية، اما الاخر، وهي طفلة في الخامسة، فيبدو انها كانت مصابة بالكوليرا فعلا. فتم الحجر على ابويها واخوتها الثلاثة وعزل كل منهم على انفراد في الحجر الصحي. كما اخضع الحي بأسره الى رقابة طبية صارمة. كان أحد الاطفال مصابا بعدوى الكوليرا ولكنه استعاد عافيته بسرعة، وعادت الاسرة كلها الى البيت عندما زال الخطر. وخلال ثلاثة شهور سجلت احدى عشرة حالة اخرى، ثم حدث استفحال مخيف في الشهر الخامس، ولكن ما ان انتهت السنة حتى اعتبر انه قد تم تجاوز مخاطر الوباء. ولم يشك احد في ان صرامة الدكتور خوفينال اوربينو الصحية، اضافة الى مقدرة مناديه الجوالين، هي التي جعلت تحقيق المعجزة ممكنة. ومنذ ذلك الحين، وحتى وقت متقدم من القرن الحالي، اصبحت الكوليرا داء مستوطنا ليس في المدينة فقط وانما في ساحل الكاريبي كله تقريبا وفي حوض نهر ماجدلينا، ولكن المرض لم يكن يتفاقم متحولا الى جائحة. لقد افادت حالة الذعر في تطبيق تنبيهات الدكتور خوفينال اوربينو بجدية اكبر من جانب السلطات العامة. ففرضت شعبة أجبارية خاصة بالكوليرا والحمى الصفراء في مدرسة الطب، وجرى الاسراع في ردم المجاري وبناء سوق جديد بعيدا عن المزبلة. ولكن الدكتور اوربينو لم يكن يعبأ حينئذ باعلان

انتصاره كما لم يعد متحمساً للاستمرار في مهماته الاجتماعية، لانه هو نفسه كان مكسور الجناح في ذلك الحين، مذهولا ومشتتا، ومستعدا لتغيير كل شيء ونسيان كل شيء في الحياة من اجل بارقة حب فيرمينا دازا.

لقد كان ذلك الحب فعلا ثمرة تشخيص طبي خاطىء. اذ ان طبيبا صديقا ظن انه لمح اعراض الكوليرا الاولية على مريضة في الثامنة عشرة، وطلب من الدكتور خوفينال اوربينو الذهاب لعيادتها. ذهب مساء ذلك اليوم بالذات، مذعورا من احتمال ان يكون الوباء قد دخل هيكل المدينة القديمة، فجميع الاصابات حتى ذلك الحين اقتصرت على الاحياء الهامشية، وكانت كلها تقريبا بين الزنوج. ووجد هناك مفاجآت اخرى ليست أقل جحودا. كان البيت الغارق في ظلال اشجار لوز حديقة البشارة يبدو مخربا من الخارج كغيره من البيوت ذات الاسوار الاستعمارية، أما في الداخل فكان يسود نظام جميل وضوء خافت يبدوان وكأنهما من عصر آخر من عصور العالم. كان دهليز المدخل يؤدي مباشرة الى بهو اشبيلي، مربع ومطلي بكلس أبيض حديث، وفيه اشجار برتقال مزهرة وأرضية مرصوفة ببورسلين كبورسلين الجدران. كان هناك خرير ماء متواصل لامرئي، واصص قرنفل على الافاريز وأقفاص عصافير نادرة بين قناطر الرواق. واكثر تلك الطيور غرابة هي ثلاثة غربان في قفص كبير جدا، تضمخ جو البيت برائحة عطر مبهم حين تحرك اجنحتها. وبدأت عدة كلاب مقيدة في مكان ما من البيت بالعواء فجأة، وقد أطارت رائحة الغريب صوابها، لكن صرخة امرأة جعلت الكلاب تسكت تماما، وقفزت أعداد من القطط من كل الجهات واختبأت بين الازهار، مرتعدة من سلطة ذلك الصوت. حينئذ ساد صمت شفاف، جعل انفاس البحر الكئيب مسموعة من خلال اضطراب العصافير ووقع ماء النافورة على الحجر.

وفكر الدكتور خوفينال اوربينو، وهو يرتعش ليقينه بحضور الرب جسديا، ان بيتا كهذا يجب ان يكون عصيا على الوباء. لحق بغالا بلاثيديا عبر رواق القناطر، ومر مقابل نافذة حجرة الخياطة حيث رأى فلورينتينو اريثا لأول مرة فيرمينا دازا حين كان البهو ما يزال مليئا بالانقاض، ثم صعد الادراج الرخامية الجديدة الى الطابق الثاني، وانتظر نقل خبر وصوله قبل ان يدخل مخدع المريضة. لكن غالا بلاثيديا رجعت بملاحظة لدى خروجها:

- تقول الانسة انه لايمكنك الدخول الان لأن والدها ليس في البيت.

وهكذا كان عليه ان يعود ثانية في الخامسة مساء، حسب تعليمات الخادمة، وفتح له الباب حينئذ لورينثو دازا شخصيا وقاده الى حجرة نوم ابنته، وبقي جالسا في عتمة الركن مقاطعا ذراعيه ومحاولا دون جدوى السيطرة على انفاسه المتسارعة، خلال الوقت الذي استغرقه الفحص. لم يكن من السهل معرفة من هو الاكثر ارتباكا، أهو الطبيب بلمسه الخجول، أم

المريضة بخفر العذراء في قميص نومها الحريري، لكن أيا منهما لم ينظر في عيني الاخر، وانما كان يسألها بصوت مبهم وتجيبه بصوت مرتعش، وكلاهما متعلق بالرجل الجالس في العتمة. واخيرا طلب الدكتور خوفينال اوربينو من المريضة ان تجلس، وفتح قميص نومها حتى الخصر بحرص لذيذ: تلألأ صدرها الشامخ غير الممسوس، ذو الحلمتين الطفوليتين، للحظة وكأنه وميض برق في ظلالة المخدع، قبل ان تسرع لتخفيه بذراعيها المتقاطعتين. فأزاح الطبيب ذراعيها بحزم دون ان ينظر اليها، وقام باجراء الفحص المباشر بوضع اذنه على الجلد، بادئا بالصدر أولا ثم الظهر.

وقد اعتاد الدكتور خوفينال اوربينو ان يقول بانه لم يشعر بأي انفعال عندما تعرف على المرأة التي سيعيش معها حتى يوم مماته. كان يتذكر قميص النوم السماوي ذي التطريز المخرم، والعينين المحمومتين، والشعر الطويل المنسدل على الكتفين، ولكنه كان مبهورا من اقتحام الوباء للسور الاستعماري، فلم يتمعن في شيء من المحاسن الكثيرة التي تمتلكها كمراهقة يانعة، وانما انصب اهتمامه على ادنى قدر من الوباء قد يكون لديها. بينما كانت هي اكثر وضوحا: لقد بدا لها الطبيب الشاب الذي كثيرا ما سمعت باسمه اثناء الحديث عن الكوليرا، متحذلقا عاجزاً عن حب أحد سوى نفسه. وكانت نتيجة التشخيص انها مصابة بالتهاب معوي ذي منشأ غذائي برئت منه باستخدامها علاج بيتي لمدة ثلاثة ايام. اطمأن لورينثو دازا للتأكيد بان ابنته ليست مصابة بالكوليرا، فرافق الدكتور خوفينال اوربينو حتى باب العربة، ودفع له تسعيرة البيزو الذهبي التي بدت له غالية جدا حتى بالنسبة لطبيب يعالج الاثرياء، لكنه ودعه بامتنان مفرط. كان مبهوراً ببريق كنيته والقابه، ولم يفعل شيئا لمداراة ذلك الانبهار، بل انه كان مستعدا للاقدام على عمل اي شيء للالتقاء به ثانية، في ظروف اقل رسمية.

كان لابد من اعتبار المسألة منتهية. لكن الدكتور خوفينال اوربينو رجع ثانية بلا مناسبة في الثالثة من ظهر يوم الثلاثاء التالي، دون ان يستدعيه أحد ودون ان ينبيء أحدا بقدومه. كانت فيرمينا دازا في حجرة الخياطة، تتلقى درسا في الرسم الزيتي مع صديقتين اخريين عندما ظهر من النافذة بسترته البيضاء الناصعة، وقبعته العالية والبيضاء أيضاً، وأشار لها بأن تدنو. وضعت ادوات الرسم على الكرسي وسارت نحو النافذة على رؤوس اصابعها رافعة كشكش تنورتها حتى الكاحلين لتحول دون جرها على الارض. كانت تضع اكليلا مثبتا على جبهتها بمشبك فيه حجر كريم لبريقه لون أشم كلون عينيها، وكان كل ما فيها ينفث برودة. وقد لفت انتباه الطبيب انها ترتدي للرسم في البيت ملابس الخروج الى حفلة. جس نبضها من خارج النافذة، وطلب منها ان تخرج لسانها، وفحص حلقها مستخدما خافضة لسان من

المنيوم، ونظر الى ما تحت جفنيها الاسفل، وكان كلما انتهى من شيء يشير بحركة ارتياح. كان أقل ارتباكا من الزيارة السابقة، بينما كانت هي اكثر ارتباكا لانها لم تفهم سببا لهذا الفحص الطارىء، اذا كان هو نفسه قد قال بانه لن يعود الا اذا استدعوه لاي شيء يستجد. بل اكثر من ذلك: لم تكن راغبة في رؤيته الى الابد. عندما انتهى الفحص، خبأ الطبيب خافضة اللسان في الحقيبة المتخمة بالادوات وقناني الدواء، وأغلقها بضربة قوية، ثم قال لها:

- انك كزهرة متفتحة لتوها.

- شكرا.

- الشكر لله - قال لها، واستشهد استشهادا خاطئا بسان توماس -: تذكري ان كل ما هو طيب، مهما كان منشؤه، انما هو من الروح القدس. اتحبين الموسيقى؟

سأل ذلك عرضا، مع ابتسامة ساحرة، لكنها لم تجبه. بل سألت بدورها:

- ماقصدك من هذا السؤال؟

فقال:

- الموسيقى مهمة للصحة.

كان يؤمن بذلك أحيانا، وستعرف هي عما قريب، وحتى نهاية حياتها، ان الموسيقى كانت اشبه بمعادلة سحرية يستخدمها لاقامة صداقة، ولكنها فهمت الامر في ذلك الحين على انه سخرية. ثم ان صديقتيها اللتين تظاهرتا بالرسم فيما هما تتحدثان أفلتتا ضحكات فئران وخبأتا وجهيهما بحاملة الالوان، وهذا ما أفقد فيرمينا داثا صوابها، فصفقت النافذة بقوة وقد أعماها الغضب. حاول الطبيب الحائر امام مصراع النافذة المخرم ان يجد طريقه الى البوابة الخارجية، لكنه أخطأ الاتجاه، وفي اضطرابه اصطدم بقفص الغربان العطرية، فأطلقت هذه زعقة صماء، وخفقت بأجنحتها مرتعبة، مضمخة ملابس الطبيب بعطر نسائي. جمده صوت لورينثو داثا الراعد في مكانه.

- دكتور.. انتظرني حيث انت.

كان قد رأى كل شيء من الطابق العلوي، فنزل الدرج وهو يزرر قميصه متغطرسا ومتوردا، وسوالفه الطويلة ما تزال مشعثة بعد حلم قيلولة سيء. حاول الطبيب ان يتغلب على الحرج:

لقد قلت لابنتك انها تبدو كزهرة.

فقال لورينثو داثا:

انها كذلك، ولكنها زهرة كثيرة الاشواك.

مر من جانب الدكتور اوربينو دون ان يحيه. ودفع مصراعي نافذة حجرة الخياطة وأمر ابنته بصرخة خشنة:

- تعالي واعتذري من الدكتور.

حاول الطبيب ان يتوسط ليحول دون ذلك، لكن لورينثو داثا لم يعره اهتماما. وأصر: «أسرعي». نظرت الى صديقتيها بتوسل خفي لتفهما، وردت على ابيها بانه لايوجد ما يستوجب الاعتذار، وبانها أغلقت النافذة لتمنع استمرار دخول الشمس فقط. حاول الدكتور اوربينو تأييد حججها، ولكن لورينثو داثا أصر على الامر. حينئذ رجعت فيرمينا داثا الى النافذة، شاحبة من الغضب، وقدمت قدمها اليمنى فيما هي ترفع تنورتها بأطراف اصابعها، وانحنت للطبيب انحناءة مسرحية وقالت:

- أقدم لك اخلص اعتذاري أيها السيد المبجل.

جاراها الدكتور خوفينال اوربينو بمزاج رائق، رافعاً قبعته العالية بحركة كحركات الفرسان، لكنه لم ينل ابتسامة الرحمة التي كان ينتظرها. دعاه لورينثو داثا بعد ذلك ليتناولا في المكتب قهوة المصالحة فوافق مبتهجاً، حتى لا تبقى اية شكوك في انه ازال من روحه كل اثر للضغينة.

الحقيقة ان الدكتور خوفينال اوربينو لم يكن يشرب القهوة، باستثناء فنجان واحد في الصباح قبل الطعام، ولم يكن يتعاطى الكحول أيضاً، ما عدا كأساً من النبيذ مع الطعام في بعض المناسبات الجليلة. لكنه لم يتناول القهوة التي قدمها اليه لورينثو داثا فحسب، بل ووافق كذلك على شرب كأس من خمر اليانسون. ثم قبل فنجاناً آخر من القهوة وكأساً اخرى من الخمر، ثم اخرى واخرى، رغم انه سيزور بعض المرضى الذين لم يزرهم بعد. استمع أول الأمر إلى الاعتذارات التي تابع لورينثو داثا تقديمها باسم ابنته، التي وصفها بانها طفلة ذكية وجدية، جديرة بأمير من هنا أو من أي مكان آخر، وعيبها الوحيد، حسب زعمه، هو طبعها الذي يشبه طبع بغة. لكنه بعد الكأس الثانية ظن بانه يسمع صوت فيرمينا داثا يأتي من طرف الفناء، ومضى خياله في اثرها، ولاحقها في الليل الذي بدأ يلف البيت فيما هي تشعل اضواء الممر، وترش غرف النوم بمضخة مبيد الحشرات، وتكشف الغطاء عند الموقد عن قدر الحساء الذي ستتاوله هذه الليلة مع ابيها، هو وهي وحدهما على المائدة دن ان يرفعا بصرهما، ودون ان يرشفا الحساء بصوت مسموع كي لا يحطما سحر الغضب، إلى ان يستسلم الأب ويطلب الصفح منها لقسوته هذا المساء.

كان الدكتور اوربينو يعرف النساء جيداً، فأدرك ان فيرمينا داثا لن تقرب المكتب ما لم ينصرف هو منه. لكنه أخر على أية حال، لانه كان يحس ان كبرياءه الجريح لن يتيح له

العيش بسلام بعد اهانة هذا المساء. ويبدو ان لورينثو داثا، الذي نال منه السكر، لم يلاحظ عدم اهتمامه به، اذ كان يكفي نفسه بطلاقة لسانه التي لا كابح لها. كان يتكلم طويلاً وهو يمضغ عقب سيجاره المنطفىء، ويسعل بصوت عال، ويتف، ويحاول الاسترخاء بصعوبة على الكرسي الدوار الذي تئن نوابضه كأنين حيوان متهيج. لقد شرب ثلاث كؤوس مقابل كل كأس شربه ضيفه، ولم يتوقف عن الكلام إلا عندما انتبه إلى ان كلاً منهما لم يعد يرى الآخر، فنهض ليشعل المصباح. تأمله الدكتور خوفينال أوربينو من الأمام على نور الضوء الجديد، ورأى ان احدى عينيه مائلة كعين سمكة وان كلماته لا تتفق مع حركة شفتيه، وفكر بانها تخيلات تراوده لاسرافه في الكحول. حينئذ نهض واحساس اخاذ يسيطر عليه بانه في جسد ليس جسده، وانما جسد شخص ما يزال على المقعد حيث كان. واضطر للقيام بمجهود شاق كي لا يفقد اتزانه.

كانت الساعة قد تجاوزت السابعة عندما خرج من المكتب يسبقه لورينثو داثا. كان القمر بدراً. وكان البهو الذي زينه له خياله يطفو في حوض مائي، والاقفاص المغطاة بقطع قماشية بدت وكأنها اشباح نائمة تحت الرائحة الدافئة لازهار البرتقال الجديدة، وكانت نافذة حجرة الخياطة مفتوحة، وعلى طاولة العمل يوجد مصباح مضيء، بينما اللوحات غير المكتملة معلقة على الحوامل وكأنها في معرض. «أين انت أيتها الغائبة»، قال الدكتور اوربينو لدى مروره، لكن فيرمينا داثا لم تسمعه، ولم يكن بمقدورها ان تسمعه، لانها كانت تبكي غيظاً في مخدعها، وهي منبطحة على بطنها فوق السرير بانتظار والدها لتقاضيه على اذلالها هذا المساء. لم يكن الطبيب ليتنازل عن وداعها، لكن لورينثو داثا لم يعرض عليه ذلك. لقد حن الى براءة نبضها، والى لسانها الذي كلسان قطة، ولوزتيها الطريتين، ولكنه فقد الحماس حين فكر بانها لم تعد ترغب برؤيته أبداً ولن تسمح له بان يحاول ذلك. عندما دخل لورنيثو داثا في الدهليز، اطلقت الغربان المستيقظة تحت الشرشف صرخة جنائزية، فقال الطبيب بصوت عال: «ستقلع عينيك»، وكان يفكر بها، فالتفت اليه لورينثو داثا ليسأله ما الذي قاله.

فأجاب :

ـ لست أنا الذي قلت، وانما هي الخمرة.

رافقه لورينثو داثا حتى العربة محاولا اقناعه بقبول البيزو الذهبي كأجرة للزيارة الثانية، لكنه لم يقبله. أعطى الحوذي تعليمات صحيحة ليوصله إلى بيت المريضين اللذين عليه زيارتهما، وصعد إلى العربة دون مساعدة، لكنه بدأ يشعر بالاعياء بفعل اهتزاز العربة فوق

الشوارع المرصوفة بالاحجار، فما كان منه إلا ان أمر الحوذي بتغيير الاتجاه. نظر لبرهة في المرآة ورأى ان صورته أيضاً ما زالت تفكر بفيرمينا داثا، فهز كتفيه. واخيراً أطلق جُشأة رملية، أسند رأسه على صدره وأغفى، وفي الحلم بدأ يسمع نواقيس الحداد. سمع نواقيس الكتدرائية أولاً، ثم نواقيس جميع الكنائس، بما فيها اجراس كنيسة سان خوان هوسبتالير يو المكسرة.

فدمدم وهو نائم :

ـ خراء، لقد مات الموتى.

كانت أمه وشقيقتاه يتناولن عشاء مؤلفاً من القهوة بالحليب وكعكة الجبن والدقيق على طاولة المآدب في صالة الطعام الكبيرة، عندما رأينه يظهر في الباب بوجه منهك ورائحة مخزية تفوح منه هي رائحة عطر المومسات التي نفثتها الغربان. كان الناقوس الكبير في الكتدرائية المجاورة يرن في السكون المخيم على البيت. سألته امه مذعورة اين كان، لانهم بحثوا عنه في كل الانحاء ليعالج الجنرال اغناسيو ماريا، آخر أحفاد المركيز دي خاريث دي لافيرا، الذي مات هذا المساء باحتقان دماغي. ومن اجله كانت تقرع الأجراس. انصت الدكتور خوفينال اوربينو لامه دون ان يسمعها، وأمسك باطار الباب، ثم دار نصف دورة محاولاً الوصول إلى حجرته، لكنه هوى على وجهه وسط انفجار قيء خمر مدو.

صرخت أمه :

ـ يا مريم **المقدسة**. لا بد ان أمراً غريباً جعلك تجيء إلى بيتك في مثل هذه الحالة.

لكن الاكثر **غرابة** لم يكن قد حدث بعد. فقد انتهز زيارة عازف البيانو المعروف روميو لوسيتش، الذي عزف مجموعة سونيتات لموزارت بعد ان انتهى حداد المدينة على الجنرال اغناسيو ماريا مباشرة. فحمّل الدكتور خوفينال اوربينو بيانو مدرسة الموسيقى على عربة تقودها البغال، وأحيا لفيرمينا داثا سيرناداً أصبح مضرب المثل. استيقظت هي مع النغمات الأولى، ولم تكن بحاجة المنظر من تخريمات الشرفة لتعرف من هو صاحب هذا التكريم الفريد. والشيء الوحيد الذي أسفت له هو عدم امتلاكها شجاعة غيرها من الآنسات المجربات اللواتي يفرغن محتويات المبولة فوق رأس العاشق غير المرغوب فيه. أما لورينثو داثا فقد ارتدى ملابسه على عجل اثناء عزف السيرناد، ودعا الدكتور خوفينال اوربينو وعازف البيانو للدخول وهما ما يزالان بالملابس والزينة الخاصة بحفلة الكونشيرتو، وشكرهما على السيرناد بكأس جيد من البراندي.

سرعان ما تنبهت فيرمينا داثا إلى ان والدها يحاول ان يلين قلبها. ففي اليوم التالي للسيرناد قال لها بمواربة: «تصوري شعور امك لو انها عرفت بانك مرغوبة من أحد آل

سليمة العاقبة حول سيرناد البيانو المنفرد. أحست بالغضب، والعجز، والذل. وعلى العكس من البداية؛ حين رغبت بالعثور على العدو الخفي لاقناعه باخطائه، أصبحت تريد فرمه الآن بمقص تشذيب الحديقة. صارت تمضي الليالي مستيقظة، محللة تفاصيل وتعابير الرسائل المجهولة، على أمل العثور على بارقة عزاء. وكان ذلك وهماً باطلاً: ففيرمينا داثا بطبعها كنت غريبة عن عالم آل اوربينو دي لاكايي الداخلي، وكانت تمتلك الاسلحة لمواجهة فنونهم الخيرة، أما الشريرة فلا.

وأصبحت هذه القناعة أشد مرارة بعد رعب الدمية السوداء التي وصلتها في تلك الأيام بلا أية رسالة، ولكن بدا لها انه من السهل تصور مصدرها: فالدكتور خوفينال اوربينو وحده يمكن ان يكون مرسلها. انها مشتراة من المارتينيك، حسب بطاقة المنشأ، وترتدي فستاناً محكماً، لها شعر اجعد به خيوط ذهبية، وهي تغمض عينيها عند تمديدها. لقد رأت فيها فيرمينا داثا تسلية جعلتها تتغلب على وساوسها، فكانت تمددها على مخدتها في النهار. واعتادت على النوم معها في الليل. وبعد فترة من الزمن، اثر حلم منهك، اكتشفت ان الدمية كانت تكبر: فالثياب الاصلية التي وصلت بها أصبحت تكشف عن فخذيها، والحذاء تمزق بضغط نمو القدمين. كانت فيرمينا داثا قد سمعت من قبل عن رقيات سحرية افريقية مشؤومة، ولكن أياً منها لم يكن رهيباً كهذه. ولم تستطع، من جهة اخرى، تصور ان يكون رجل كخوفينال اوربينو قادراً على ارتكاب فظاعة مماثلة. وكانت محقة: فالدمية لم يوصلها الحوذي، وانما بائع قريدس عابر، لم يستطع أحد ان يقدم لها خبراً يقيناً عنه. وفي محاولة لحل اللغز، فكرت فيرمينا داثا للحظة بفلورينتينو ارثا، الذي كانت تجهمه يثير فزعها، لكن الحياة تكفلت باقناعها بخطئها. ولم يتضح السر أبداً وكان مجرد تذكره يبعث فيها قشعريرة رعب إلى ما بعد زواجها بكثير، وانجابها أولاداً، واعتقادها بانها مختارة القدر وأسعد النساء.

المحاولة الاخيرة للدكتور اوربينو كانت توسط الاخت فرانكاديلوث، رئيسة راهبات ظهور العذراء المقدسة، التي لا تستطيع رفض طلب من عائلة أيدت طائفتها منذ استقرار هذه الطائفة في الامريكيتين. حضرت برفقة راهبة مستجدة في الساعة التاسعة صباحاً، وتسلتا كلتاهما لمدة نصف ساعة بأقفاص العصافير ريثما تنتهي فيرمينا داثا من الاستحمام. كانت ألمانية رجولية تتكلم بنبرة معدنية ولها نظرة آمرة لاعلاقة لها بعواطفها الصبيانية. ولم يكن في هذا العالم ما تكرهه فيرمينا داثا اكثر من كرهها لها ومما رأته على يديها، ومجرد تذكر شفقتها الكاذبة كان يسبب لها حرقصة عقرب في احشائها. وما ان تعرفت عليها من باب الحمام حتى عادت تعيش دفعة واحدة جميع عذابات المدرسة، وحلم القداس اليومي الذي لا يطاق، ورعب الامتحانات، ومساعي المستجدات الدنيئة، وكل الحياة المفسدة بموشور الفقر

الروحي. أما الاخت فرانكا دي لالوث بالمقابل، فقد حيتها بمرح بدا نزيهاً. وأبدت دهشتها لنموها ونضجها، وأطرت على حكمتها في تدبير شؤون البيت، وذوقها الرقيق الظاهر في الفناء، وفي مجمرة أزهار البرتقال. ثم أمرت المستجدة بانتظارها، وعدم الاقتراب كثيراً من الغربان القادرة على انتزاع عينيها في لحظة اهمال، وبحثت عن مكان منعزل تجلس فيه لتتحدث على انفراد مع فيرمينا داثا. فدعتها هذه إلى الصالة.

كانت زيارة قصيرة وفظة. فالاخت فرانكا دي لالوث، ودون اضاعة الوقت في الديباجات، عرضت على فيرمينا داثا رد اعتبار مشرف. كما ان سبب الطرد سيمحى، ليس من المحاضر فقط، وانما من ذاكرة الطائفة أيضاً، وهذا سيتيح لها استكمال دراستها والحصول على الشهادة الثانوية في الآداب. أرادت فيرمينا داثا الحائرة ان تعرف السبب.

فقالت الراهبة:

ـ كل ذلك بناء على طلب شخص جدير بكل شيء، ورغبته الوحيدة هي إسعادك. أو تعرفين من هو؟

حينئذ فهمت الأمر. وسألت نفسها كيف يمكن لامرأة غيرت مسار حياتها من أجل رسالة بريئة ان تقوم الآن بدور رسول الحب، لكنها لم تتجرأ على قول ذلك. وقالت بالمقابل انها عرفت الرجل المعني، وانها تعرف كذلك بانه لا يملك الحق للتدخل في حياتها.

فقالت الراهبة:

ـ الشيء الوحيد الذي يرجوه هو ان تسمحي له بالتحدث اليك لخمس دقائق. وأنا متأكدة ان أباك سيوافق.

أصبح غضب فيرمينا داثا اشد زخماً لفكرة ان اباها متواطىء في تلك الزيارة. فقالت:

ـ لقد رأينا بعضنا مرتين حين كنت مريضة. وليس من سبب يدعو للقاء الآن.

وقالت الراهبة:

ـ ان هذا الرجل هو بمثابة هدية من العناية الالهية بالنسبة لأي امرأة لها دماغ عرضه اصبعان.

وتابعت الكلام عن فضائله، وعن ورعه، وانكبابه على خدمة المعذبين. وفيما هي تتكلم أخرجت من كمها مسبحة ذهبية تنتهي بمسيح منحوت من العاج، وهزتها أما عيني فيرمينا داثا. انها من آثار العائلة، وعمرها اكثر من مئة سنة، صاغها صائغ من سيينا وباركها البابا كليمنت الرابع.

ـ انها لك ـ قالت لها.

أحست فيرمينا داثا بتيار دافق من الدم في اوردتها، وتجرأت حينئذ على القول:

- لا استطيع ان أفهم كيف تقبلين القيام بمهمة كهذه، اذا كنت ترين في الحب خطيئة.

تظاهرت الاخت فرانكا دي لالوث بانها لم تدرك مغزى الملاحظة، لكن اجفانها التهبت. وتابعت تحريك المسبحة مقابل عينيها. وقالت:

- خير لك ان تتفاهمي معي، فقد يجيء بعدي نيافة الاسقف، وسيكون الحال معه مختلفاً.

فقالت فيرمينا داثا:

- فليأت.

خبأت الاخت فرانكا دي لالوث المسبحة الذهبية في كمها، ثم أخرجت من الكم الآخر منديلاً مستعملاً كثيراً، ومجعداً على شكل طابة، واحتفظت به مضغوطاً في قبضتها، ناظرة إلى فيرمينا داثا من بعيد جداً بابتسامة حانية وتنهدت.

- مسكينة أنت يا بنيتي، ما زلت تفكرين بذلك الرجل.

مضغت فيرمينا داثا الاهانة وهي تنظر إلى الراهبة دون ان يرمش لها جفن، وحدقت في عينيها، دون ان تتكلم، وهي تمضغ بصمت، إلى ان رأت بسعادة لانهائية عينيها الرجوليتين تغرورقان بالدموع. ومسحتهما الاخت فرانكا دي لالوث بالمنديل المكور، ونهضت واقفة وهي تقول:

- لقد صدق والدك حين قال بانك بغلة.

لم يأت الاسقف. وكان الحصار سينتهي في ذلك اليوم، لولا ان هيلديبرندا سانتشيث جاءت لقضاء أعياد الميلاد مع ابنة عمتها، فتبدلت الحياة لكلتيهما. استقبلوها في السفينة القادمة من ريوهاتشا في الساعة الخامسة صباحاً، وسط اضطراب مسافرين يحتضرون من لدوار، فيما نزلت هي من السفينة مشعة وناضجة، بروح هائجة بفعل الليلة البحرية السيئة. جاءت محملة بصناديق الديكة الرومية الحية وبكل انواع الثمار التي تطرحها بساتينهم الزاهرة، كي لا ينقص الطعام على أحد أثناء زيارتها. وبعث والدها ليسياكو سانتشيث يسأل ان كانوا بحاجة إلى موسيقين من أجل حفلة الفصح، لأن أفضل الموسيقيين متوفرين تحت تصرفه، ويعد بانه سيبعث فيما بعد بشحنة من الألعاب النارية. ويعلن أيضاً بانه لن يستطيع المجيء لأخذ ابنته قبل شهر اذار، وهذا يعني ان لديهما متسعاً من الوقت تعيشانه معاً.

بدأت الفتاتان في الحال. استحمتا معاً منذ مساء اليوم الأول، عاريتين، وطهرتا بعضهما بماء البركة. تعاونتا على دلك جسديهما بالصابون، وأخرجت كل منهما الصيبان من شعر

الاخرى، وقطرنتا اردافهما، ونهودهما الصلبة، وتأملت كل منهما في مرآة الاخرى لترى قسوة الزمن عليهما مذ رأتا بعضهما عاريتين اخر مرة. كانت هيلديبراندا ضخمة ومتينة، ذات بشرة ذهبية، لكن شعر جسمها بأسره كان شعر مولدة، قصير ومفتول وكأنه رغوة أسلاك. أما فيرمينا داثا فكانت ذات عري شاحب، خطوطه طويلة، وبشرة صافية ناعمة الزغب. جعلتهما غالا بلاثيديا تضعان سريرين متماثلين في حجرة النوم. لكنهما كانتا تستلقيان في سرير واحد أحياناً وتتحدثان بعد اطفاء النور حتى الفجر، وتدخنان سيجاراً من النوع الرفيع الذي يدخنه قطاع الطرق. كانت هيلديبراندا قد احضرته معها مخبأ في بطانة الصندوق، وكان عليهما ان تحرقا بعد التدخين أوراق ارمينا لتنقية هواء الحجرة الذي يصبح كهواء اكواخ الرعاة. لقد دخنت فيرمينا داثا للمرة الأولى في فاييدوبار، وتابعت التدخين في فونسيكا، وفي ريوهاتشا، حين كانت تحبس نفسها مع عشر من بنات اخوالها في حجرة ليتحدثن عن الرجال ويدخن في الخفاء. وتعلمت التدخين بالمقلوب، وذلك بوضع طرف السيجار المشتعل في فمها، كما يدخن الرجال في ليالي الحرب كي لا تفضح جمرة السيجار. لكنها لم تدخن أبداً منفردة. وأصبحت تفعل ذلك مع هيلديبراندا في بيتها كل ليلة قبل ان تناما. ومنذ ذلك الحين اكتسبت عادة التدخين، رغم انها كانت تدخن في الخفاء دوماً، وحتى بالخفاء عن زوجها وأولادها، ليس ذلك لانه كان يُنظر إلى المرأة المدخنة في العلن بغير الرضى، وانما لأن متعتها كانت تكتمل في السرية.

كانت رحلة هيلديبراندا قد فُرضت عليها كذلك من جانب ابويها في محاولة لابعادها عن حبها المستحيل، رغم انهم اقنعوها بانها مسافرة لمساعدة فيرمينا داثا على حسم أمرها في وجهة حسنة. وقد وافقت هيلديبراند على أمل السخرية من النسيان، واتفقت مع موظف التلغراف في فونسيكا ليوصل رسائلها بأقصى قدر من الكتمان. ولذا كان يأسها مريراً حين علمت ان فيرمينا داثا قد صدت فلورينتينو اريثا لان هيلديبراندا كانت تملك رؤية كونية للحب، وتفكر ان ما يطرأ على حب يؤثر على جميع غراميات العالم بأسره. ولكنها لم تتخل عن مشروعها. ذهبت، بجرأة سببت لفيرمينا داثا أزمة رعب، إلى مكتب البريد بغرض كسب جميل فلورينتينو اريثا.

ماكان لها ان تتعرف عليه، اذ لم يكن فيه اي ملمح من الصورة التي رسمتها له في خيالها من خلال فيرمينا داثا. وللوهلة الأولى رأت انه يستحيل ان تكون ابنة عمتها قد اوشكت على الجنون في سبيل ذلك الموظف الذي لا يكاد يلفت الانتباه، والذي له ملامح كلب مضروب بالعصا، بملابسه التي كملابس حاخام منكوب وأساليبه غير القادرة على اثارة قلب أحد. لكنها ما لبثت ان ندمت لهذا الانطباع الأول، عندما وضع فلورينتينو اريثا نفسه

في خدمتها بلا أية شروط وحتى دون أن يعرف من تكون . ولم يعرف ذلك أبداً . ما كان لأحد ان يفهمها مثله، فلم يطلب منها الافصاح عن هويتها كما لم يطلب أي عنوان . ووضع حلاً بمنتهى البساطة : عليها ان تمر بمكتب التلغراف مساء كل اربعاء ليسلمها ولا شيء سوى ذلك . وعندما قرأ رسالة هيلدبير اندا المكتوبة سألها إن كانت توافق على تعديل يقترحه، فوافقت . فكتب فلورينتينو اريثا بعض التعديلات بين السطور، ثم شطبها، واعاد كتابتها، حتى لم يعد لديه فراغ بين السطور، واخيراً مزق الورقة وكتب رسالة مختلفة تماماً بدت لها مثيرة . وعندما خرجت هيلدبير اندا من مكتب التلغراف كانت على حافة الدموع .

وقد قالت لفيرمينا دائما :

ـ انه قبيح وكئيب . لكنه ينضح حباً .

وكان اكثر ما لفت انتباه هيلدبير اندا هو عزلة ابنة عمتها . وقد قالت لها بانها تبدو كعانس في العشرين من العمر . فهيلدبير اندا المعتادة على اسرة كثيرة العدد وموزعة، في بيوت لا أحد يعرف بالتحديد عدد الذين يعيشون فيها ولا من هم الذين سيتناولون الطعام في كل وجبة، لم تستطع ان تتصور فتاة في مثل سنها تحجز نفسها في الحياة الخاصة . وهكذا كانت فيرمينا دائما : فمنذ استيقاظها في السادسة صباحاً، والى ان تطفيء نور حجرة النوم، كانت تكرس نفسها لاضاعة الوقت . فالحياة تُفرض عليها من الخارج : أولاً، ومع صياح الديكة الأولى، يوقظها بائع الحليب بمقرعة الباب . ثم تدق بائعة السمك على صندوق اسماك الأبرميس التي ما زالت تحتضر فوق فرشة من الاعشاب البحرية، وتأتي التشكيلة الفاخرة من خضروات بساتين ماريا السفلى وفواكه سان خاثينتو . بعد ذلك، وطوال النهار، يقرع الجميع الباب : المتسولون، بائعات اليانصيب، راهبات الاحسان، المجلخ بنايه، ومُشتري القناني الفارغة، ومُشتري الذهب المكسر، ومشتري ورق الجرائد، والغجريات المزيفات اللواتي يقرأن الحظ في أوراق اللعب، وفي خطوط الكف، وفي بقايا القهوة، وفي ماء الجفنة . كان الاسبوع يمر على غالا بلاثيديا وهي تفتح الباب وتغلقه لتقول لا، عد في يوم آخر، أو لتصرخ من الشرفة بمزاج معكر ان توقفوا عن الازعاج، اللعنة، لقد اشترينا كل ما نحتاجه . كانت قد حلت محل العمة اسكولاستيكا بحماسة شديدة وظرافة كبيرة، حتى ان فيرمينا دائما كانت تخطيء فتظنها العمة وتحبها على انها كذلك . كانت مسكونة بهواجس عبدة . فما ان تجد لحظة فراغ حتى تمضي إلى غرفة الاشغال لتكوي الملابس البيضاء، وتتركها على أحسن حال، وتحفظها في الخزائن مع ازهار الخزامى، ولم تكن تكوي وتطوي ما كانت قد غسلته فقط وانما كذلك الملابس التي فقدت رونقها لقلة الاستخدام . وبالاهتمام ذاته كانت تحافظ على ملابس فيرمينا سانتشيث، والدة فيرمينا، المتوفاة منذ أربعة عشر عاماً خلت . لكن فيرمينا

دائما هي التي كانت تتخذ القرارات . فهي من يأمر باعداد ما يجب للطعام، وما يجب إعداده شراؤه، وما يجب عمله في كل حالة، وبهذا كانت تقرر مسار حياة بيت لا يوجد فيه في الواقع ما يجب تقريره . فبعد ان تنتهي من تنظيف الأقفاص ووضع الطعام للعصافير، والتأكد من ان الازهار ما عادت بحاجة لشيء، تصبح دون اتجاه . وبعد طردها من المدرسة، كثيراً ما كانت تبقى نائمة منذ القيلولة ولا تستيقظ حتى اليوم التالي . ولم تكن دروس الرسم إلا وسيلة مسلية اخرى لاضاعة الوقت .

كانت علاقاتها بابيها خالية من العواطف منذ نفي العمة اسكولاستيكا، لكنهما وجدا سبيلاً الى العيش معاً دون عراقيل . فحينما تستيقظ، يكون قد خرج إلى أعماله . ونادراً ما كان يتخلف عن طقس الغداء، مع انه لم يكن يأكل شيئاً تقريباً، اذ كان يكتفي بالمقبلات والاصناف الجليقية الخفيفة التي تقدم في مقهى الباروكية . ولم يكن يتناول العشاء أيضاً : كانوا يتركون له حصته من العشاء على المائدة، في صحن واحد مغطى بصحن آخر، رغم معرفتهم بانه لن يأكلها حتى اليوم التالي بعد اعادة تسخينها على الفطور . وكان يعطي ابنته النقود اللازمة للنفقات مرة كل اسبوع، ويحسب تلك النقود جيداً، وكانت تتصرف بها بصرامة، لكنه كان يلبي عن طيب خاطر اي طلب تطلبه لنفقات طارئة . لم يساومها على قرش في يوم من الأيام، ولم يطلب منها بياناً بالحساب يوماً، لكنها كانت تتصرف وكأنها ستقدم كشفاً بالحساب أمام محكمة قدسية . لم يحدثها أبداً عن طبيعة اعماله وحالتها، كما لم يرافقها لتتعرف على مكاتبه في الميناء، تلك التي في موقع محظور على الآنسات دخوله حتى وهن بصحبة آبائهن . ولم يكن لورينثو دائا يرجع إلى بيته قبل الساعة العاشرة ليلاً، وهي ساعة حظر التجول في مراحل الحرب الأقل خطراً . وكان يبقى حتى ذلك الحين في مقهى الباروكية، يلعب كل شيء، لانه كان متخصصاً في جميع العاب الصالونات، ومعلماً جيداً لهذه الألعاب أيضاً . وكان يعود دوماً إلى بيته في حالة من الاتزان العقلي، دون أن يوقظ ابنته، رغم انه كان يتناول أول كأس من خمر اليانسون عند استيقاظه ويتابع مضغ عقب سيجاره المنطفيء وشرب عدد من الكؤوس المتفرقة طوال النهار . لكن فيرمينا دائما أحست بدخوله في احدى الليالي . سمعت وقع خطواته كخطوات قوزاقيّ على الدرج، ولهاثه الضخم في ممر الطابق الثاني، وضرباته بكف يده على باب غرفة النوم . ففتحت له الباب، وفزعت للمرة الأولى من عينه المنحرفة وكلماته المضطربة .

قال لها :

ـ لقد انهرنا . انه الانهيار الكامل، وها انتذي قد علمت .

كان ذلك هو كل ما قاله، ولم يعد لقول ذلك أبداً، ولم يحدث ما يشير إلى انه قال الحقيقة،

لكن فيرمينا داثا وعت بعد تلك الليلة انها وحيدة في الدنيا. كانت تعيش على أحد هوامش المجتمع، فصديقاتها القديمات في المدرسة كن في سماء محرمة عليها، وقد أصبح الامر اكثر صعوبة بعد فضيحة طردها، لكنها لم تكن بمثابة جارة لجيرانها أيضاً، لان هؤلاء تعرفوا عليها بلا ماض وبزي مدرسة ظهور العذراء المقدسة، أما عالم ابيها فكان عالم التجار وحمالي السفن، عالم لاجئي الحروب في وكر مقهى الباروكية العام، عالم رجال متوحدين. لقد خففت دروس الرسم من عزلتها في السنة الاخيرة، لان المعلمة كانت تفضل الدروس الجماعية وقد اعتادت ان تأتي معها بتلميذات اخريات إلى حجرة الخياطة، لكنهن فتيات من اوساط اجتماعية مشوشة وغير محددة. لم يكنّ بالنسبة لفيرمينا داثا اكثر من صديقات مستعارات ينتهي تأثيرهن مع انتهاء كل درس. أرادت هيلدبراندا ان تفتح البيت، ان تهويه، ان تأتي بالموسيقيين والالعاب النارية وقلاع البارود من عند ابيها واقامة حفلة رقص كرنفالية يقوض عصفها حالة ابنة عمتها المعنوية المنخورة، لكنها سرعان ما تنبهت إلى أن نواياها غير مجدية. والسبب بسيط: لا يوجد من يشارك في الحفلة.

وكانت هيلدبراندا على اي حال هي التي وضعتها في الحياة. ففي المساء، وبعد دروس الوسم، كانت ترافقها إلى الشارع للتعرف على المدينة، وقد ارتها فيرمينا داثا الطريق الذي كانت تقطعه يومياً مع العمة اسكولاستيكا، ومقعد الحديقة حيث كان فلورينتينو اريثا يتظاهر بالقراءة لينتظرها، والازقة التي كان يلاحقها فيها، ومخابىء الرسائل، والقصر المشؤوم الذي كان سجن السانتو افيثيو فيما مضى وتحول إلى مدرسة ظهور العذراء المقدسة، التي تكرهها من أعماق روحها. صعدتا إلى رابية مقبرة الفقراء، حيث كان فلورينتينو اريثا يعزف الكمان حسب اتجاه الريح لتسمعه وهي في الفراش، ومن هناك رأتا المدينة التاريخية بكاملها، والسقوف المهشمة والجدران المتآكلة، وانقاض الحصون بين الاجمات، والجزر المتناثرة في الخليج، واكواخ البؤس حول المستنقعات، والكاريبي الرحب. في ليلة عيد الميلاد ذهبتا إلى القداس في الكتدرائية، وجلست فيرمينا في المكان الذي تصلها فيه موسيقى فلورينتينو اريثا على أحسن وجه، وأرت ابنة خالها المكان الدقيق الذي رأت فيه لأول مرة عن قرب عينيه المرتعبتين في ليلة كهذه الليلة. وغامرتا بالذهاب وحدهما إلى زقاق الكتبة العموميين، واشترتا الحلوى، وتوقفتا في دكان الأوراق السحرية، وأرت فيرمينا داثا ابنة خالها المكان الذي اكتشفت فيه فجأة ان حبها لم يكن اكثر من سراب. ولم تتنبه هي نفسها إلى ان كل خطوة خطتها من البيت الى المدرسة، وكل مكان في المدينة، كل لحظة من ماضيها القريب ما كان لها من وجود إلا بفضل فلورينتينو اريثا. ولفتت هيلدبراندا انتباهها إلى ذلك، لكنها لم توافق على الأمر، لانها لم تقبل يوماً حقيقة ان فلورينتينو اريثا، بخيره أوشره، هو الشيء الوحيد الذي حدث لها في الحياة.

في هذه الايام جاء المدينة مصور فوتوغرافي بلجيكي، وأقام استوديو تصويره في اعالي زقاق الكتبة، وانتهز كل قادر على الدفع الفرصة ليلتقط صورة. وكانت فيرمينا وهيلدبراندا من الأوائل. أفرغتا خزانة ملابس فيرمينا سانتشيث، واقتسمتا ازهى الملابس، والمظلات، واحذية الاحتفالات، والقبعات، وارتدتا ملابس سيدات كانت سائدة منذ نصف قرن. ساعدتهما غالا بلاثيديا على شد أحزمة الخصر، وعلمتهما كيف تتحركان في هياكل التنانير الداخلية المصنوعة من الاسلاك، وكيف تلبسان القفازات، وتزرران الاحذية ذات الكعوب العالية. وفضلت هيلدبراندا قبعة عريضة الحواف مزينة بريش نعام يتدلى على ظهرها. ووضعت فيرمينا قبعة اكثر حداثة، مزينة بفواكه جصية ملونة وأزهار كرينولينا. ثم ضحكتا لمظهرهما عندما رأتا في المرآة انهما تشبها صور الجدات، وانطلقتا سعيدتين، ضاحكتين، لتلتقطا صورة عمرهما. رأتهما غالا بلاثيديا وهما تجتازان الحديقة وقد فتحتا مظلتيهما، مستندتين كيفما اتفق على كعوب احذيتهما، ودافعتين تنانيرهما المكشكشة مع جسدهما كله في مشية كمشية الأطفال، فباركتهما كي يساعدهما الله في صورهما.

كانت هناك جلبة مقابل استوديو البلجيكي، اذ كان يلتقط صوراً لبيني ثيتينو، الذي كسب في تلك الأيام بطولة الملاكمة في بناما. كان يرتدي سروال الملاكمة والقفازات ويضع التاج على رأسه، ولم يكن تصويره بالامر السهل، اذ كان عليه ان يقف في وضعية الهجوم لمدة دقيقة، وان يتنفس أقل ما يمكن، لكنه ما ان يتخذ وضعية الاحتراس حتى ينطلق انصاره المتعصبون بالتصفيق والهتاف، فلا يستطيع مقاومة اغراء اسعادهم بعرض فنونه. وعندما جاء دور الفتاتين كانت السماء قد تلبدت بالغيوم وبدا أن المطر سيهطل حتماً، لكنهما سمحتا للمصور بتعفير وجهيهما بالنشاء واستندتا إلى عمود رخامي بشكل طبيعي، وتمكنتا من الوقوف دون حراك لوقت بدا أطول من المعقول بكثير. وكانت صورة خالدة. عندما توفيت هيلدبراندا، وهي على مشارف المئة من عمرها، في مزرعتها المسماة فلوريس دي ماريا، وجدوا نسختها من الصورة في خزانة مخدعها المقفلة ما بين ثنايا شراشف معطرة، الى جانب بقايا رسالة محتها السنون. وقد احتفظت فيرمينا داثا بنسختها لسنوات طويلة في الصفحة الأولى من ألبوم عائلي، حيث اختفت دون ان يعرف أحد كيف، أو متى ووصلت إلى يدي فلورينتينو اريثا اثر سلسلة من المصادفات التي لا تُصدق، بعد ان تجاوزا كلاهما السبعين.

كانت الساحة المقابلة لزقاق الكتبة تغص بالنساء حتى الشرفات عند خروج فيرمينا وهيلدبراندا من استوديو البلجيكي. لقد نسيتا أن وجهيهما أبيضان بالنشاء وشفتيهما مطليتان بمرهم له لون الشوكولاته، وان ملابسهما لاتناسب الساعة ولا الحقبة الحالية. واستقبلهما

الشارع بفيض من السخرية . فانزوتا وحاولتا الهرب من الاستهزاء العام ، حين شقت العربة التي يقودها جوادان اشقران ذهبيان طريقها وسط الحشد . فتوقفت السخرية وتفرقت الجموع المعادية . لن تستطيع هيلديبراندا ان تنسى أبداً رؤيتها الأولى للرجل الذي ظهر على ركاب العربة ، بقبعته الملساء ، وسترته البروكار وحركاته الماهرة ، وعذوبة عينيه ، وسلطة حضوره .

ورغم انها لم تكن قد رأته من قبل ، الا انها عرفته في الحال . كانت فيرمينا دائما قد حدثتها عنه ، فعلت ذلك مصادفة وبلا أية مصلحة ، في مساء يوم من أيام الشهر الماضي حين لم تشأ المرور قرب بيت المركيز دي كاسالدويرو لان عربة الخيول الذهبية كانت تقف أمام الباب . واخبرتها من هو صاحب العربة وحاولت ان تشرح لها سبب نفورها ، دون ان تقول لها كلمة واحدة عن طلبه الزواج منها . كانت هيلديبراندا قد نسيته . ولكنها عندما تعرفت عليه وهو عند باب العربة وكأنه طيف من حكاية خيالية ، احدى قدميه على الارض والأخرى على ركاب العربة ، لم تستطع ان تفهم أسباب نفور ابنة عمتها منه .

ـ اصعدا من فضلكما ـ قال لهما الدكتور خوفينال اوربينو ـ سأوصلكما حيث تأمران .

بدأت فيرمينا دائما القيام بحركة مبهمة ، لكن هيلديبراندا كانت قد وافقت . أنزل الدكتور خوفينال اوربينو قدمه إلى الأرض وساعدها على الصعود إلى العربة بأطراف اصابعه ، وهو لا يكاد يلمسها . وحين لم تجد فيرمينا مخرجاً صعدت وراءها ، بوجه يتقد حرجاً .

كان البيت يبعد أربع كوادرات فقط ، ولم تنتبه الفتاتان إلى ان الدكتور اوربينو قد اتفق مع الحوذي ، ولكن لا بد أن الأمر كذلك ، لان العربة استغرقت اكثر من نصف ساعة في الوصول . كانتا تجلسان على المقعد الرئيسي ، وجلس هو مقابلهما مولياً ظهره لاتجاه سير العربة . التفتت فيرمينا بوجهها نحو النافذة وغرقت في الفراغ . أما هيلديبراندا ، فكانت مفتونة ، وكان الدكتور اكثر فتنة بافتتانها . وما ان انطلقت العربة حتى أحست برائحة جلد المقاعد الطبيعي الدسمة ، وحميمية العربة من الداخل ، فقالت انها تراها مكاناً مناسباً للعيش فيه . وسرعان ما أخذا يضحكان ويتبادلان المزاح كصديقين قديمين ، وعرجا على لعبة كلمات ذات رطانة بسيطة ، تتلخص بادخال مقطع صوتي متوافق بين كل مقطعين . كانا يتظاهران بالاعتقاد ان فيرمينا لا تفهمهما ، رغم معرفتهما بانها ليست فاهمة فحسب ، بل ومنصتة اليهما أيضاً ، ولذا كانا يتابعان اللعب . وبعد هنيهة من الوقت ، وكثير من الضحك ، اعترفت هيلديبراندا بانها ماعادت تحتمل الآلام التي يسببها لها الحذاء فقال الدكتور اوربينو :

ـ الامر في غاية البساطة . هلمي لنر من ينتهي أولاً .

وبدأ بحل رباط حذائه ، وقبلت هيلديبراندا التحدي . لم يكن الأمر سهلاً لأن مشد الاسلاك ما كان يسمح لها بالانحناء ، لكن الدكتور اوربينو تأخر متعمداً ، إلى ان أخرجت حذاءها من تحت التنورة بضحكة ظافرة ، وكأنها اصطادت الحذاء لتوها من بركة راكدة . عندئذ نظرا معاً إلى فيرمينا ، ورأيا بروفيل وجهها اكثر حدة من أي وقت آخر على خلفية المساء القائظ . لقد كانت غاضبة ثلاثياً : للوضع غير اللائق الذي هي فيه ، ولسلوك هيلديبراندا الشائن ، وليقينها بان العربة تجول على غير هدى لتأخير الوصول . لكن هيلديبراندا كانت منفلتة من عقالها . وقد قالت :

ـ لقد ادركت الآن ان ما يزعجني ليس الحذاء وانما هذا القفص من الاسلاك .

وأدرك الدكتور اوربينو انها تعني التنورة الداخلية ، فأمسك بالسانحة على الفور ، وقال : « الامر في غاية البساطة . اخلعيها . » وبحركة شعوذة سريعة اخرج منديلا من جيبه وعصب عينيه قائلا :

ـ أنا لا أرى .

أبرزت العصابة نقاء شفتيه بين اللحية المستديرة السوداء والشارب ذي الطرفين المدببين وأحست هي بارتعاشة ذعر تهز كيانها . فنظرت إلى فيرمينا ، ولم تجدها غاضبة الآن ، وانما مرتعبة من ان تكون هي على استعداد لخلع تنورتها . فاتخذت هيلديبراندا وضعاً جدياً وسألت باشارات من يديها « ماذا نفعل ؟ » . واجابتها فيرمينا دائما بالطريقة ذاتها بانها ستلقي بنفسها من العربة اذا هم لم يذهبوا الى البيت مباشرة .

قال الطبيب :

ـ انني أنتظر .

فقالت هيلديبراندا :

ـ بامكانك ان ترى .

عندما نزع الدكتور خوفينال اوربينو العصابة عن عينيه ، وجدها قد تغيرت ، وأدرك أن اللعب قد انتهى ، وانه انتهى بصورة سيئة . وباشارة منه دار الحوذي بالعربة دورة كاملة ، ودخل في حديقة البشارة في اللحظة التي كان فيها مشعل الانوار يشعل المصابيح العامة ، وقرعت جميع الكنائس نواقيسها داعية إلى صلاة التبشير . نزلت هيلديبراندا مسرعة ومضطربة بعض الشيء لانها أغضبت ابنة عمتها ، وودعت الطبيب بمصافحة سطحية . وفعلت فيرمينا مثلها ، ولكن حين حاولت سحب يدها بالقفاز الأملس . ضغط الدكتور اوربينو بقوة على اصبعها الوسطى قائلاً :

ـ مازلت انتظر ردك .

حينئذ سحبت فيرمينا يدها بقوة ، وبقي القفاز الفارغ معلقاً في يد الطبيب ، لكنها لم تنتظر لاستعادته . وذهبت إلى النوم دون أن تأكل . أما هيلديبراندا ، فبعد ان تناولت العشاء في

المطبخ مع غالا بلاثيديا، دخلت الى حجرة النوم وكأن شيئاً لم يحدث، وعلقت بظرافتها الطبيعية على أحداث المساء. لم تخف حماسها للدكتور اوربينو، وأطرت على اناقته ولطفه، ولم تعقب فيرمينا على كلامها بشيء، ولكنها كانت محتاطة للمناكفة. واعترفت هيلديبراندا انها في لحظة معينة، حين عصب الدكتور اوربينو عينيه ورأت بريق اسنانه المنتظمة بين شفتيه الورديتين، أحست برغبة لاتقاوم لأكله بالقبلات. فانقلبت فيرمينا داثا نحو الجدار ووضعت حداً للحديث دون رغبة في الاساءة، بل انها كانت تضحك، ومن أعماق قلبها، وقالت:

ـ يالك من عاهرة!

نامت متقافزة، وكانت ترى الدكتور اوربينو في كل مكان، رأته يضحك، ويغني، ويطلق شرر كبريت من اسنانه وعيناه معصوبتان، ويسخر منها برطانة لا قواعد لها في عربة مختلفة كانت تصعد نحو مقبرة الفقراء. واستيقظت قبل الفجر بكثير منهكة، وبقيت مستيقظة وعيناها مغمضتان تفكّر بالسنوات الطويلة التي ما زال عليها ان تعيشها. بعد ذلك، وفيما هيلديبراندا تستحم، كتبت رسالة بأقصى سرعة، وطوتها بأقصى سرعة، ودستها بأقصى سرعة في مغلف، وقبل ان تخرج هيلديبراندا من الحمام بعثتها مع غالا بلاثيديا إلى الدكتور خوفينال اوربينو. كانت واحدة من رسائله. وقد كتبت له عليها: أجل يادكتور، كلم والدي. دون اي حرف اكثر أو أقل.

حين علم فلورينتينو اريثا أن فيرمينا داثا ستتزوج من طبيب نبيل وثري، متعلم في أوروبا وذي شهرة فريدة في مثل سنه، لم تكن هنالك قوة قادرة على اخراجه من مذلته. وقد فعلت ترانسيتو اريثا اكثر مما هو ممكن لتعزيته بأساليب كأساليب عروس عندما رأت انه فقد النطق والشهية وانه يقضي الليل مسهداً يبكي دون راحة، إلى ان تمكنت بعد اسبوع من جعله يأكل. حينئذ تحدثت إلى ليون الثاني عشر لوايثا، الحي الوحيد من الاخوة الثلاثة، ورجته دون ان توضح الاسباب ان يقدم عملاً لابن اخيه ليقوم بأي شيء في المؤسسة البحرية، على ان يكون ذلك في أي ميناء منسي وسط الغابات من موانيء نهر مجدلينا، حيث لا وجود لبريد ولا لتلغراف، وحيث لا يلتقي بأحد ينقل له شيئاً عن مدينة الضياع هذه. لم يمنحه العم عملاً احتراماً لزوجة اخيه، التي لم تكن تحتمل مجرد وجود البندوق، لكنه حصل له على وظيفة عامل تلغراف في فيّا دي ليبفا، مدينة الاحلام الواقعة على بعد اكثر من عشرين مرحلة، والتي ترتفع حوالي ثلاثة آلاف متر فوق مستوى شارع لاس فينتاناس.

لم يعِ فلورينتينو اريثا أبداً تلك الرحلة العلاجية. وسيتذكرها دوماً مثل كل ماحدث له في تلك الفترة، من خلال زجاج محنته المغبش. عندما استلم برقية التعيين في المنصب لم يفكر باخذها على محمل الجد، لكن لوتاريو توغوت أقنعه بحجج المانية ان مستقبلاً باهراً ينتظره في

الادارة العامة. وقال له: «ان التلغراف مهنة المستقبل». واهداه زوجاً من القفازات الملساء ومعطفاً ذا ياقة من الفرو مجرباً في شهور كانون الجليدية في بافيرا. وأهداه العم ليون الثاني عشر بدلتين وجزمة واقية من المطر كانت لشقيقه الاكبر، وقدم له بطاقة الرحلة مع قمرة في السفينة التالية. قيفت ترانسيتو اريثا الملابس على مقاس ولدها، الذي كان أقل بدانة من أبيه وأقصر بكثير من الألماني، واشترت له جوارب صوفية وسراويل داخلية طويلة كي لا ينقصه شيء لمواجهة قسوة السهب. وكان فلورينتينو اريثا، المتصلب من شدة المعاناة، يساعد في الاعداد للرحلة كما بامكان ميت أن يساعد في مراسم جنازته. لم يقل لأحد انه ذاهب، ولم يودع أحداً، واحتفظ بالكتمان الحديدي الذي لم يكشف فيه لأحد سوى امه سر عاطفته المقهورة، ولكنه في عشية السفر اقترف حماقة قلبية اخيرة كان يمكنها ان تكلفه حياته. ارتدى في منتصف الليل بدلة الأحد، وعزف وحيداً تحت شرفة فيرمينا داثا فالس الحب الذي وضعه لها، والذي لا يعرفه احد سواهما الاثنين، وكان خلال ثلاث سنوات شعار توافقهما المتناقض. عزفه مدمدماً بكلمات الاغنية، على الكمان الغارق بالدموع، وبالهام زخم جعل كلاب الشارع تبدأ بالعواء منذ النغمات الأولى، ثم تلتها كلاب المدينة باسرها، ولكنها أخذت تصمت بعد ذلك شيئاً فشيئاً في افق الموسيقى، الى ان انتهى الفالس بصمت ما ورائي. لم تُفتح الشرفة، ولم يطل أحد الى الشارع، حتى ولا الحارس الليلي الذي يهرع عادة بفانوسه، محاولاً التحضر بالاستماع الى فتات موسيقى السيرنادات الليلية. لقد كان ذلك الفصل رقية تفريج عن فلورينتينو اريثا، لانه ما ان خبأ الكمان في علبته وابتعد في الشوارع الميتة دون ان يلتفت إلى الوراء، حتى فقد الشعور بانه سيغادر في صباح اليوم التالي، وانتابه احساس بانه قد غادر منذ سنوات طويلة وبقرار قاطع ألا يعود أبداً.

كان قد أعيد تعميد السفينة، وهي واحدة من ثلاث سفن متشابهة لدى شركة الكاريبي للملاحة النهرية، باسم مؤسس الشركة: بيوس الخامس لوايثا. كانت عبارة عن بيت عائم من طابقين خشبيين فوق هيكل من الحديد، عريض ومستو، وبغاطس حده الأقصى خمسة أقدام يتيح للسفينة التغلب على أعماق النهر المتفاوتة على أحسن وجه. السفن الأقدم كانت بنيت في سينسيناتي في منتصف القرن، حسب النموذج الخرافي للسفن التي كانت تقوم بالعبور من نهر اوهيو إلى الميسيسبي، وكان لها في كل جانب عجلة دفع تتحرك بطاقة مرجل بخاري وقوده الحطب. ومثل هذه كانت سفن شركة الكاريبي للملاحة النهرية، ففي الطبقة السفلية، وعلى مستوى الماء تقريباً، هناك الألات البخارية والمطابخ، والحظائر الكبيرة حيث كان البحارة يعلقون شباك نومهم، متقاطعة على عدة مستويات. أما الطابق العلوي فكانت مقصورة القيادة وقمرات القبطان وضباطه، وصالة اللهو وصالة الطعام، حيث كان يدعى

المسافرون المرموقون مرة واحدة على الاقل للعشاء ولعب الورق. أما في الطبقة الوسطى فكانت توجد ست قمرات من الدرجة الاولى على جانبي ممر يستخدم كصالة طعام عادية، وهناك في المقدمة صالة جلوس مفتوحة فوق النهر، لها شرفة خشبية مزخرفة وأعمدة من الحديد، حيث كان المسافرون العاديون يعلقون شباك نومهم ليلاً وخلافاً للنماذج القديمة، لم تكن لهذه السفن عجلتا دفع على الجانبين، وانما عجلة واحدة في المؤخرة، ذات رياش أفقية تحت مراحيض طبقة المسافرين الخانقة. لم يتكلف فلورينتينو اريثا مشقة استكشاف السفينة فور صعوده إلى متنها، في الساعة السادسة صباحاً من يوم أحد حزيراني، كما يفعل عادة من يسافرون لأول مرة بدافع الغريزة. وقد وعى الحالة التي هو فيها عند الظهيرة فقط، وبينما كانت السفينة تبحر مقابل دسكرة كالامار، حين ذهب للتبول في المؤخرة ورأى من فتحة المرحاض العجلة العملاقة ذات العوارض الخشبية تدور تحت قدمية بقعقعة بركانية وزبد وبخار ملتهبين.

لم يكن قد سافر أبداً من قبل. كان يحمل صندوقاً من الصفيح فيه ملابس السهب، والروايات المصورة التي كان يشتريها في اجزاء شهرية، وكان يخيطها بنفسه مع اغلفة من الورق المقوى، وكتب أشعار الحب التي يحفظها ويلقيها عن ظهر قلب، والتي توشك ان تتحول إلى رماد لكثرة ما أعاد قراءتها. كان قد خلف الكمان الذي يرتبط إلى حد بعيد بنكبته، لكن أمه أجبرته على حمل صرة السفر التي تضم عدة نوم شعبية وعملية: وسادة، ودثار، ومبولة من التوتياء، وكلّة مخرمة للحماية من البرغش، كل هذا ملفوف بحصيرة مربوطة بحبلين لتعليقها كأرجوحة نوم في حالة الطوارىء، لم يكن فلورينتينو اريثا يريد حملها، فقد ظن انها لن تفيده بشيء في قمرة مزودة بأسرة مستوية، ولكن كان عليه ان يشكر لأمه حسن تدبيرها منذ الليلة الأولى. وفعلاً، فقد صعد في اللحظة الاخيرة إلى المركب مسافر يرتدي ملابس بروتوكولية كان قد وصل ذلك الصباح في سفينة قادمة من اوروبا، وكان يرافقه حاكم المقاطعة شخصياً. وهو يريد متابعة الرحلة فوراً مع زوجته وابنته، وكذلك خادمه الذي يرتدي زيّ الخدم والصناديق السبعة ذات الحواشي المذهبة والتي صعدت بمشقة على السلالم. وتمكن القبطان، وهو مارد من كورثاو، من اثارة الشعور الوطني بين الكريوليين لتأمين راحة المسافر الطارىء. وشرح لفلورينتينو اريثا بمزيج من القشتالية والبابيامنتو[1] ان الرجل البروتوكولي هو الوزير المفوض الجديد لانكلترا المسافر إلى عاصمة الجمهورية، وذكره بأن تلك المملكة قد قدمت موارد حاسمة لاستقلالنا من الهيمنة

---

(1) لهجة محلية شائعة في كوراساو، وهي مزيج من الاسبانية والهولندية. (م)

الاسبانية، وبناء عليه فان أية تضحية ستكون ضئيلة الشأن في سبيل ان تشعر عائلة رفيعة المقام وهي في بيتنا بانها أحسن حالاً من بيتها. وطبعاً تخلى فلورينتينو اريثا عن قمرته.

لم يأسف لذلك في البدء، اذ كان ماء النهر غزيراً في تلك الفترة من السنة، وكانت السفينة تبحر دون عوائق في الليلتين الأوليين. كان افراد طاقم السفينة يوزعون على المسافرين بعد العشاء، في الخامسة مساء، نوعاً من الاسرة المطوية سطحها من قماش الخيم المتين، وكان كل مسافر يفتح سريره حيث يستطيع، ويجهزه بالخرق التي في صرة سفره ثم ينصب فوقه الكلة المخرمة. أما الذين يملكون أراجيح نوم فكانوا يعلقونها في الصالون، والذين لا يملكون شيئاً ينامون على موائد صالة الطعام متدثرين بشراشف الطاولات التي لم تستبدل إلا مرتين خلال الرحلة. كان فلورينتينو اريثا يمضي معظم الليل ساهراً متخيلاً انه يسمع صوت فيرمينا داثا في نسيم النهر البارد، راعياً الوحدة بذكرياته، مستمعاً غناء في لهاث السفينة المتقدمة بخطوات حيوان ضخم في الظلمات، إلى ان تظهر اولى البقع الوردية في الافق وينشق النهار الجديد فجأة على صحارى فسيحة ومستنقعات ضباب. وكانت الرحلة تبدو له حينئذ دليلاً آخر على حكمة أمه، وأحس بحماسة لتجاوز السيان.

بعد ثلاثة ايام من المياه المواتية، أصبح الابحار أكثر مشقة بين المصاطب الرملية المفاجئة وتعكر الماء الذي يخفي مدى عمق النهر. أصبح النهر عكراً وصار يضيق اكثر فأكثر وسط غابة عظيمة من الاشجار المتشابكة، حيث كان يظهر من حين لآخر كوخ من القش إلى جانب اكوام الحطب المعدة لمراجل السفن. ويبدو ان لغط الببغاوات وصياح القردة اللامرئية كان يفاقم من قيظ الظهيرة. أما في الليل، فكان لابد من ربط السفينة للنوم، فيصبح مجرد كون المرء حياً حينئذ أمراً لا يطاق. فاضافة للحر والبرغش تأتي روائح شرائح اللحم المملح المنشورة على دربزينات السفينة لتجف. فكان معظم المسافرين، وخاصة الاوربيين منهم، يغادرون نتانة القمرات ويقضون الليل وهم يذرعون سطح المركب، ويهشون جميع انواع الهوام بنفس المناشف التي يمسحون بها العرق المتواصل، ويدركهم الصباح وهم منهكون ومتورمون بفعل اللسع.

وكان قد اندلع في تلك السنة أيضاً فصل جديد من الحرب الاهلية المتقطعة بين الليبراليين والمحافظين، فاتخذ القبطان احتياطات شديدة الصرامة لحفظ النظام الداخلي وأمن المسافرين. وفي محاولة لمنع وقوع الأخطاء والاستفزازات، حظر ممارسة التسلية المفضلة في رحلات ذلك الزمان، ألا وهي اطلاق النار على التماسيح القابعة تحت الشمس على الضفاف. وفيما بعد، حين انقسم المسافرون إلى فريقين متعاديين اثناء احدى المناقشات،

قام بمصادرة أسلحة الجميع واعداً بكلمة شرف ان يعيدها عند انتهاء الرحلة. كان صارماً في هذا الامر حتى مع الوزير البريطاني الذي خرج منذ صباح اليوم التالي لبدء الرحلة بملابس الصيد، حاملاً غدارة احتياطية وبندقية صيد بسبطانتين من تلك المستخدمة في صيد النمور. ثم أصبحت القيود اكثر تشدداً بعد اجتياز مرفأ تينيريفي، حيث التقوا بمركب يرفع راية صفراء، هي علامة الوباء. ولم يحصل القبطان على أية معلومات حول تلك العلامة المرعبة، لان السفينة الاخرى لم تجب على اشارتهم. لكنهم التقوا في ذلك اليوم بالذات بسفينة اخرى محملة بمواش من جامايكا، واعلمتهم هذه بان سفينة الراية الوبائية تحمل على متنها مريضين بالكوليرا، وان الوباء كان يُحدث اضراراً وخسائر في مجرى النهر الذي عليهم الابحار فيه، عندئذ مُنع المسافرون من مغادرة السفينة ليس في الموانىء التالية فحسب، بل وفي الاماكن غير المأهولة حيث كانوا يتوقفون للتزود بالحطب. وهكذا اعتاد المسافرون فيما تبقى من الرحلة حتى مرفأ النهاية، والتي استمرت ستة أيام اخرى، على عادات السجون. ومن هذه العادات، المشاهدة الضارة لرزمة من بطاقات الصور الجنسية الهولندية التي كانت تنتقل من يد إلى اخرى دون ان يعلم أحد علم اليقين من أين أتت، مع أن أي مجرب للسفر في النهر لم يكن ليجهل انها لا تكاد تشكل إلا عينة من مجموعة القبطان الخرافية. ولكن حتى هذه التسلية التي لا امل فيها انتهت إلى مضاعفة السأم.

احتمل فلورينتينو اريثا قسوة الرحلة بصبر معدني كان يحزن أمه ويغيظ اصدقاءه. لم يخالط أحداً. وكانت الايام بالنسبة له تمضي سهلة وهو جالس مقابل الدرابزين، يراقب التماسيح الجاثمة تحت الشمس على الضفاف بأشداق مفتوحة لاقتناص الفراشات، ويتأمل قطعان مالك الحزين المفزوعة التي تنطلق فجأة من المستنقعات، والأطَم[1] التي ترضع صغارها من اثدائها الامومية الضخمة وتفاجىء المسافرين ببكائها النسوي. وفي أحد الأيام رأى ثلاثة أجساد آدمية تطفو في الماء، كانت منتفخة وخضراء، وفوق كل منها عدد من طيور الرخمة. مر أولاً جسدا رجلين، احدهما بلا رأس، ثم جسد طفلة صغيرة السن راح شعرها المفلت كشعر ميدوزا يتموج متلوياً من اثر مخور السفينة في الماء. لم يعرفوا أبداً، لانه لا سبيل إلى معرفة، ان كان هؤلاء من ضحايا الكوليرا أم ضحايا الحرب، لكن الرائحة النتنة لوثت ذكرى فيرمينا داثا في ذاكرته.

هكذا كان دائماً: فأي حدث، خيراً كان أم شراً، يذكره بها. في الليل، حين كانوا

(١) الأطم: جمع أطوم وهو حيوان لبون، يأوي الى الماء، مؤخره يشبه السمك، له يدان وليس له رجلان وطوله نحو ثماني أقدام. يعرف كذلك ببقر الماء.

يربطون السفينة ويتمشى معظم المسافرين دون عزاء على السطح، كان هو يراجع عن ظهر قلب تقريباً الروايات المصورة تحت مصباح الكربور في صالة الطعام، وهو المصباح الوحيد الذي يبقى مضاء حتى الصباح. وكانت المآسي التي قرأها مرات ومرات تستعيد سحرها حين يستبدل ابطالها المتخيلين بمعارفه في الحياة الواقعية، ويحتفظ لنفسه ولفيرمينا داثا بأدوار الحب المستحيل. وفي ليال اخرى كان يكتب لها رسائل مكروبة، ما تلبث مقاطعها أن تتبدد في المياه الجارية دون توقف نحوها. وهكذا كانت تمر أقسى الساعات عليه متقمصاً شخصية أمير خجول أو فارس عاشق أحياناً، وملتحماً في أحيان اخرى بجلده المكوي كعاشق في رحلة نسيان، إلى ان تهب أولى النسمات فينصرف الى النوم جلوساً على مقاعد الشرفة.

توقف عن القراءة في احدى الليالي أبكر من المعتاد، وكان يتجه ساهياً إلى دورات المياه حين فُتح بابٌ لدى مروره في صالة الطعام المقفرة، وأمسكت يد صقر بكم قميصه وادخلته إلى القمرة. أحس بالكاد بجسد غير محدد السن لامرأة عارية في الظلام، كانت مغطاة بعرق ساخن وتنفسها غير منتظم. دفعته على ظهره فوق السرير، وفكت ابزيم حزامه، وحلت الازرار وامتطته كفارس، وجردته من عذريته دون أمجاد. سقطا كلاهما منهكين في فراغ هوة بلا قرار لها رائحة مستنقع قريدس. وبقيت جاثمة فوقه لهنيهة بعد ذلك وهي تلهث دون هواء، ثم لم يعد لها وجود في الظلام.

قالت له:

- انصرف الآن وانس كل شيء. فهذا لم يحدث أبداً.

كان الهجوم مباغتاً وناجحاً لا يمكن تصنيفه كحماقة مفاجئة مبعثها الضجر، وانما كثمرة خطة محكمة بكل مراحلها وبأدق تفاصيلها. وضاعف هذا اليقين الجذاب من تلهف فلورينتينو اريثا، الذي أحس وهو في ذروة اللذة باكتشاف لا يمكن تصديقه، بل نه رفض قبوله، وهو ان حب فيرمينا داثا الخادع يمكن استبداله بعاطفة دنيوية. وهكذا كان أن صمم على كشف هوية مغتصبته الماهرة، فلربما وجد في غريزتها كفهدة علاجاً لمحنته. لكنه لم يتوصل اليها. بل على العكس. فكلما تعمق في التحري كلما شعر بانه يبتعد عن الحقيقة.

لقد حدث الهجوم في القمرة الاخيرة، لكن هذه القمرة كانت متصلة بالقمرة قبل الاخيرة بباب داخلي، بحيث تصبح القمرتان معاً جناح نوم عائلي فيه أربع اسرة. وهناك كانت تسافر امرأتان شابتان، واخرى متقدمة في السن إلا انها ذات مظهر حسن، ومعهم طفل عمره بضعة شهور. كنّ قد التحقن بالرحلة من برانكو دي لوبا، وهو الميناء الذي يحملون فيه بضائع وركاب مدينة مامبوكس مذ أصبحت هذه المدينة على هامش طريق السفن البخارية بسبب

أهواء النهر، وكان فلورينتينو اريثا قد دقق بهن لكوبهن يحمنن الطفل في قفص عصافير ضخم.

كن يسافرن بملابس حديثة كتلك التي ترتديها المسافرات في عابرات المحيط الضخمة، ببطانات تحت التنانير الحريرية، وياقات مخرمة وقبعات عريضة الحواف مزينة بزهور كرينولينا، وكانت الشابتان تستبدلان زينتهما وملابسهما كلها عدة مرات في اليوم، حتى بدا وكأنهما تحملان معهما جوهن الربيعي، بينما المسافرون الاخرون يختنقون في الحر. وثلاثتهن كن بساريات في استخدام المظلات ومراوح الريش. لم يستطع فلورينتينو اريثا ان يحدد حتى نوع العلاقة التي تربطهن، رغم كونهن دون شك من أسرة واحدة. لقد فكر أول الأمر بان الكبرى هي أم الاخريين، لكنه أدرك فيما بعد انها ليست كبيرة في السن بما يكفي لتكون كذلك، ثم انها ترتدي ملابس حداد لا تشاطرها اياه الاخريان. ولم يتصور ان تكون احداهن قد تجرأت على فعل فعلتها فيما زميلتاها نائمتان في السريرين المجاورين، والافتراض الوحيد المعقول هو انها استغلت فرصة عارضة، اومدبره، بقيت أثناءها وحيدة في القمرة. وتحقق من اثنين منهن تخرجان أحياناً للاستمتاع بالبرودة حتى وقت متأخر فيما تبقى الثالثة لرعاية الطفل، لكنهن في احدى الليالي القائظة خرجن ثلاثتهن معاً برفقة الطفل النائم في قفص الخيزران المغطى بظلة من نسيج شفاف.

ورغم اختلاط كل هذه المؤشرات، فقد تعجل فلورينتينو اريثا الى استبعاد ان تكون كبرى الثلاث هي منفذة الهجوم، ثم برأ في الحال ساحة الصغرى أيضاً، التي كانت اجملهن وأجرأهن. فعل ذلك دون مبررات مقنعة، ولأن مجرد رصده لتلهف للنساء الثلاث حثه على الاقتناع برغبته الداخلية في ان العاشقة العابرة هي أم الطفل الحبيس في القفص. ولقد فتنه هذا الافتراض إلى الحد الذي جعله يفكر بها اكثر من تفكيره بفيرمينا داثا، دون ان يهتم بما كان يبدو واضحاً في ان تلك الأم حديثة الولادة كانت تعيش لابنها فحسب. لم يكن لها من العمر اكثر من خمس وعشرين سنة، وكانت نحيلة ومذهبة، ذات أجفان برتغالية تجعلها اكثر بعداً، وكان لأي رجل ان يكتفي بفتات من حنانها الذي تغدقه على ابنها. فمنذ تناول طعام الفطور وحتى ساعة النوم كانت تهتم بشؤونه في الصالة، فيما زميلتاها الاخريان تلعبان الدمينو الصيني، وحين توفق إلى تنويمه، تعلق القفص من سقفه في اكثر الاماكن برودة على شرفة السفينة. لكنها لم تكن تتخلى عنه حتى بعد ان ينام، وانما تهز القفص مترنمة بأغنيات العرائس، فيما أفكارها تطير متبعدة عن مصاعب الرحلة. تشبث فلورينتينو اريثا بانها ستكشف نفسها عاجلاً أم آجلاً ولو من خلال ايماءة بسيطة. وصار يراقب حتى تبدلات تنفسها من خلال ايقاع القلادة الذهبية التي تعلقها فوق بلوزتها القطنية الرقيقة، مدققاً

دون ستر من فوق الكتاب الذي يتظاهر بقراءته، وارتكب الوقاحة المدروسة باستبداله مكانه في صالة الطعام ليجلس مقابلها. لكنه لم يحصل على أدنى مؤشر يدل على انها هي حقاً من تملك النصف الآخر من سره. والشيء الوحيد الذي بقي له منها، عندما نادتها زميلتها الصغرى، هو اسمها: روسالبا.

في اليوم الثامن أبحرت السفينة بصعوبة بالغة عبر مضيق عكر محصور بين جرفين من صخور رخامية، وبعد الغداء رست في بويرتو ناريه، حيث سينزل المسافرون الذين سيتابعون الرحلة نحو المناطق الداخلية من مقاطعة انتيوكيا، وهي احدى اكثر المقاطعات تأثراً بالحرب الأهلية الجديدة. كان الميناء مؤلفاً من نصف دزينة من أكواخ السعف وحانة خشبية سقفها من التوتياء، تحرسه عدة دوريات من الجنود الحفاة وسيئي التسليح، اذ كانت لديهم معلومات عن خطة أعدها المتمردون للسطو على السفن. وفيما وراء البيوت ترتفع نحو السماء قمم مجموعة وعرة من الجبال عليها طريق ضيق له شكل حدوة الفرس منحوت على حافة الهاوية. لم ينم أحد ممن على ظهر المركب نوماً مطمئناً، لكن الهجوم المنتظر لم يحدث اثناء الليل، واستيقظ الميناء متحولاً إلى مهرجان أحدي، حيث الهنود الذين يبيعون تمائم مصنوعة من عاج نباتي واكاسير للحب، ووسائط للقوافل المتأهبة للانطلاق في صعود يستمر ستة أيام عبر غابات السحلبيات في سلسلة الجبال المركزية.

كان فلورينتينو اريثا قد سها وهو يتأمل عملية تفريغ السفينة على كواهل الزنوج، رأى انزال صناديق الخزف الصيني، وآلات البيانو التي تباع لعازبات افيغادو، ولم يدرك إلا متأخراً ان جماعة روسالبا هي بين المسافرين الذين سيبقون على البر. لقد رآهن يمتطين البهائم من جانب واحد، منتعلات جزمات امازونية وحاملات مظلات ذات ألوان مدارية، وعندئذ خطا الخطوة التي لم يتجرأ عليها في الأيام الماضية: حيا روسالبا بيده مودعاً، فردت عليه النساء الثلاث بطريقة واحدة، وبألفة آلمت أحشاءه لجسارته المتأخرة. رآهن يقمن بالالتفاف حول الحانة، تتبعهن البغال المحملة بالصناديق، وعلب القبعات وقفص الطفل، ثم رآهن بعد قليل يتسلقن حافة الجرف الجبلي وكأنهن صف من النمال البغلية، واختفين من حياته. حينئذ أحس انه وحيد في الدنيا، وجاءته الضربة القاضية من ذكرى فيرمينا داثا، التي بقيت كامنة خلال الأيام الأخيرة.

كان يعلم انها ستتزوج يوم السبت القادم، في حفلة زفاف صاخبة، وكونه أحبها، وسيحبها إلى الأبد اكثر من أي كان، لا يمنحه الحق حتى بالموت من أجلها. والحسد الذي كان يغرقه حتى ذلك الحين بالدموع، أصبح سيد روحه. فأخذ يدعو الله ان ينزل صاعقة العدالة الالهية لتصعق فيرمينا داثا حين تهم بقسم يمين الحب والولاء لرجل لا يريدها زوجة

له إلا لتكون حلية اجتماعية. وكان يستغرق في رؤيا العروس، بعروسه هو أو عروسة لا أحد، ملقاة فوق بلاط الكتدرائية فيما ازهار البرتقال تهطل كالثلج مبلله بندى الموت، وتموج طرحتها الزبدي فوق المرمر الجنائزي الذي يضم أربعة عشر مطراناً مدفونين مقابل المذبح الكبير.

ولكن ما ان ينتهي الانتقام، حتى يندم لأفكاره الشريرة، وعندها يرى فيرمينا دائما وهي تنهض معافاة، لسواه ولكن حية، لانه غير قادر على تصور الدنيا بدونها. لم يعد ينام، واذا كان يلتقط بضع لقيمات أحياناً فانما يفعل ذلك لتوهمه بان فيرمينا دائما قد تكون معه على المائدة، أو كي لا يمنحها شرف الصوم من أجلها. وكان يعزي نفسه في بعض الأحيان بالاقتناع انه لابد لفيرمينا دائما في نشوة حفلة الزفاف، أو في ليالي شهر العسل المحمومة، من ان تعاني ولو للحظة، لحظة واحدة على الأقل، لحظة على أي حال، حين ترفع إلى وعيها شبح الخطيب المخدوع، المهان، المبصوق، فتنهار سعادتها.

عشية الوصول إلى ميناء كاراكولي، وهو المحطة النهائية للرحلة، أقام القبطان حفل الوداع التقليدي، بمشاركة اوركسترا آلات نفخية مؤلفة من طاقم السفينة، وباطلاق ألعاب نارية من مقصورة القيادة. كان وزير بريطانيا العظمى قد اجتاز الاوديسه بصبر نموذجي، متصيداً بآلة التصوير الحيوانات التي لم يتيحوا له قتلها ببندقية الصيد، ولم تكن تمر ليلة دون ان يظهر في صالة الطعام بملابس الايتكيت. لكنه خرج إلى الحفلة النهائية بزي ماك تافيتش الاسكتلندي، وعزف القرب بمرح، وعلّم كل من رغب رقصاته الوطنية، وقبل الفجر اضطروا لنقله محمولاً إلى قمرته. أما فلورينتينو اريثا الذي أضناه الألم، فقد اتخذ ركناً منعزلاً على سطح السفينة حيث لا تصله أخبار الحفلة، وغطى نفسه بمعطف لوتاريو توغوت محاولاً مقاومة قشعريرة عظامه. كان قد استيقظ في الخامسة صباحاً، كما يستيقظ المحكوم بالاعدام صباح يوم تنفيذ الحكم. ولم يكن قد فعل شيئا طوال يوم السبت سوى تخيل كل طقس من طقوس زفاف فيرمينا دائما لحظة بلحظة. وفيما بعد، عند عودته إلى البيت، ادرك انه كان قد أخطأ في التوقيت وان كل شيء حدث بطريقة مختلفة عما تصوره، وقد كان يتمتع بمزاج طيب جعله يضحك من اوهامه.

لكنه كان على أي حال يوم سبت عاطفي انتهى بنوبة جديدة من الحمى، عندما هُيء له بانها اللحظة التي يحاول فيها العريسان الهرب خفية من حفلة الزفاف ليستسلما إلى لذائذ الليلة الأولى. وقد رآه احدهم وهو يرتعش من الحمى وأنذر القبطان بذلك، فغادر هذا الحفلة مع طبيب السفينة خشية ان تكون اصابة بالكوليرا، وبعثه الطبيب احتياطاً إلى قمرة الحجر الصحي بعد اعطائه جرعة لا بأس بها من البر ومور. وعندما بانت لهم انوار كاراكولي

في اليوم التالي، كانت الحمى قد تراجعت وكان يتمتع بمعنويات عالية، لانه في خمود المسكنات قرر فجأة ودون أية اجراءات اخرى بانه سيبعث بمستقبل التلغراف الباهر إلى الجحيم وسيرجع على السفينة نفسها إلى شارعه القديم، شارع لاس فينتاناس.

ولم يجد صعوبة في حملهم على اعادته معهم مقابل القمرة التي تنازل عنها لممثل الملكة فكتوريا. رغم ان القبطان حاول ثنيه عن عزمه أيضاً بحجج مفادها ان التلغراف هو علم المستقبل. وقال له ان الأمر كذلك لدرجة انهم يعملون لاختراع جهاز خاص لتركيبه في السفن. لكنه ضد كل حجة، وانتهى القبطان إلى القبول باعادته معه، ليس كرد دين القمرة، وانما لانه كان يعرف حقيقة علاقته بشركة الكاريبي للملاحة النهرية.

رحلة النزول في أقل من ستة أيام، أحس فلورينتينو اريثا بعدها انه في بيته ثانية منذ دخولهم فجراً في بحيرة لاس ميرثيديس، ورؤيته أضواء زوارق الصيد المتناثرة وهي تتلوى مع تيار السفينة. كان الوقت ما يزال ليلاً عندما رسوا في خليج نينيو بردينو، وهو آخر مرفأ للسفن البخارية النهرية، على بعد تسع فراسخ من البحر، قبل ان يجرفوا قاع النهر ويعيدوا المصر الاسباني القديم موضع الاستخدام. وكان على المسافرين الانتظار حتى الساعة السادسة صباحاً ليركبوا مجموعة من زوارق الاجرة الصغيرة التي تحملهم إلى هدفهم النهائي. لكن فلورينتينو اريثا كان متشوقاً مما دفعه للذهاب قبل ذلك بكثير في مركب البريد، تعرف عليه موظفوه كواحد من جماعتهم. وقبل ان يغادر السفينة سمح لنفسه بالا وراء اغراء حركة رمزية: ألقى بصرة السفر إلى الماء، ولاحقها ببصره ما بين زوارق الصيادين اللامرئية، إلى ان خرجت من البحيرة وضاعت في المحيط. كان متأكداً انه لن يحتاجها بقية حياته مطلقاً، لانه لن يغادر مدينة فيرمينا دائا إلى الأبد.

كان الخليج حوض ماء راكد عند الفجر. وفوق الضباب الطافي رأى فلورينتينو اريثا قبة الكتدرائية المذهبة بفعل الانوار الأولى، ورأى بيوت الحمام على السطوح، ومستدلاً بها حدد موقع شرفة قصر المركيز دي كاسالدويرو، حيث افترض ان امرأة محنته ما زالت تنام على ذراع الزوج المشبع. وقد مزق هذا الافتراض قلبه، لكنه لم يفعل شيئاً لقهره، بل على العكس تماماً: كان يستمتع بالألم. وحين بدأت الشمس تبعث دفئها، كان مركب البريد يشق طريقه وسط متاهة الزوارق الشراعية الراسية، حيث روائح السوق العلم التي لا حصر لها، تختلط بعفونة الاعماق لتخرج بمزيج واحد من النتانة. كانت السفينة القادمة من ريوهاتشا قد وصلت لتوها، وجماعة الحمالين الغاطسين في الماء حتى خصورهم يلتقطون المسافرين من جنب السفينة ليحملوهم إلى الشاطىء. وكان فلورينتينو اريثا هو أول من قفز من مركب البريد إلى اليابسة، ولم يعد يشم عندها بنتانة الخليج وانما برائحة فيرمينا دائا

الشخصية تفوح في جو المدينة. كل شيء كان يعبق برائحتها.

لم يعد إلى مكتب التلغراف. وبدا ان همه الوحيد هو كتيبات الحب واجزاء المكتبة الشعبية التي ما زالت أمه تشتريها له، والتي كان يقرأها ويعيد قراءتها وهو منبطح في ارجوحة النوم الى ان يحفظها في ذاكرته. ولم يسأل عن الكمان مجرد سؤال. واعاد اتصالاته مع اصدقائه المقربين، وكان يلعب معهم البلياردو أحياناً ويتبادل واياهم الحديث في مقاهي الرصيف تحت قناطر ساحة الكتدرائية، لكنه لم يعد للذهاب إلى حفلات الرقص أيام السبت: لم يكن قادراً على تصور حفلات الرقص بدونها.

في صباح يوم عودته من الرحلة التي لم تكتمل، علم ان فيرمينا داثا ذهبت لقضاء شهر العسل في اوروبا، فرأى قلبه المنفطر بانها ستبقى لتعيش هناك، ان لم يكن إلى الأبد، فلسنوات طويلة. ومنحه هذا اليقين الآمال الأولى بالنسيان. أخذ يفكر بروسالبا التي اصبحت ذكراها تتقد اكثر فأكثر كلما خمدت الذكريات الاخرى. وفي هذه الفترة كان ان ترك شاربه ذا الطرفين المدببين والمثبتين، والذي لن يحلقه فيما تبقى من حياته، وتغيرت طريقته في الحياة، وادخلته فكرة استبدال الحب في دروب غير متوقعة، أخذت رائحة فيرمينا داثا تصبح أقل حضوراً وزخماً إلى أن بقيت آخر الأمر في رائحة الياسمين الأبيض فقط.

كان يمضي مذهولاً لا يعرف كيف سيتابع حياته، حين لجأت ارملة ناثاريت إلى بيتهم في احدى ليالي الحرب، لان قذيفة مدفع أصابت بيتها، أثناء حصار الجنرال المتمرد ريكاردو غايتان اوبيسو. وكانت ترانسيتو اريثا هي التي التقطت الفرصة بسرعة، فبعثت الارملة لتنام في حجرة الابن، بحجة انه لايوجد مجال في حجرتها، لكنها في الحقيقة كانت تأمل بان يشفيه حب آخر من الحب الذي ما عاد يتركه يعيش. لم يعد فلورينتينو اريثا لممارسة الحب منذ اغتصبته روسالبا في قمرة السفينة، وبدا له طبيعياً، في ليلة طوارىء، ان تنام أرملة ناثاريث في السرير وينام هو في ارجوحة النوم. اما هي فكانت قد حسمت الأمر بدلاً منه. وفيما هي جالسة على حافة السرير حيث كان فلورينتينو اريثا مستلقياً دون ان يعرف ما عليه عمله، بدأت تحدثه عن حزنها الذي لا عزاء له على زوجها المتوفى منذ ثلاث سنوات، واثناء ذلك كانت تنضو عن جسدها وترمي في الهواء ملابس الحداد، حتى لم يبق عليها ولا خاتم الزواج. خلعت بلوزة التفتا المزينة بتطريز مطعم بالخرز، وألقت بها عبر الغرفة إلى الكرسي في الركن، وألقت الصديري من فوق كتفها إلى الطرف الآخر من السرير، وخلعت بسحبة واحدة التنورة السابغة مع التنورة الداخلية ذات الكشكش، ومشد الساتان ذا الرباط، وجرابات الحداد الحريرية، ونثرت كل ذلك على الأرض، فأضحت الغرفة وكأنها مفروشة بآخر بقايا الحداد. فعلت ذلك بابتهاج، وبوقفات محسوبة باتقان، حتى بدت قذائف مدفعية

القوات المحاصرة، التي كانت تهز ركائز المدنية، وكأنها احتفاء بكل حركة من حركاتها. حاول فلورينتينو اريثا مساعدتها على حل مشبك المشد، لكنها سبقته إلى ذلك بحركة بارعة، لانها تعلمت خلال خمس سنوات من الولاء الزوجي ان تكتفي بنفسها في جميع اجراءات الحب، بما ذلك ديباجاته، دون مساعدة أحد. واخيراً نزعت سروالها الداخلي المخرم، جاعلة أياه ينزلق من ساقيها بحركة سريعة كحركات السباحة، وبقيت في عريها المتقد.

كان عمرها ثمان وعشرين سنة وقد انجبت ثلاث مرات، لكن عريها ما زال يحتفظ بدوار العزباء. ولم يستطع فلورينتينو اريثا ان يتصور أبداً كيف أمكن لملابس التوبة ان تواري اندفاع تلك المهرة الجامحة التي عرته وهي مختنقة بحياها، وهو ما لم تستطع عمله مع زوجها حتى لا يظن بها الظنون، وحاولت ان تروي ظمأ صوم حدادها الصارم دفعة واحدة، ببلاهة وبراءة خمس سنوات من الولاء الزوجي. فقبل هذه الليلة، ومنذ ساعة الرحمة التي ولدتها فيها أمها، لم تنم ولو مجرد نوم في سرير واحد مع أي رجل سوى زوجها المتوفى.

لم تتح لتأنيب الضمير بان ينغص عليها. ففيما كرات اللهب تدوي فوق سطوح البيوت، استمرت تلهج حتى الصباح بفضائل زوجها، دون ان تلومه على أية خيانة سوى موته من دونها، وخلصت إلى اليقين بانه لم يكن يوماً لها كما كان حينئذ، في صندوق خشبي مثبت باثني عشر مسماراً طول كل منها ثلاث بوصات، وتحت ثلاثة امتار من التراب.

قالت:

- انني سعيدة. فقد علمت الآن علم اليقين أين كان يمضي عند خروجه من البيت.

لقد نزعت الحداد في تلك الليلة دفعة واحدة، دون المرور بمرحلة الاسترخاء في البلوزات ذات الازهار الرمادية، وامتلأت حياتها باغنيات الحب والملابس المثيرة المزينة برسوم ببغاوات وفراشات ملونة، وبدأت توزع جسدها على كل من يشاء طلبه. وبعد هزيمة قوات الجنرال غايتان اوبيسو، اثر حصار دام ثلاثة وسبعين يوماً، أعادت بناء البيت المثقوب بقذيفة مدفع، وجعلت له مصطبة بديعة تطل على البحر فوق حائل للامواج حيث يصطدم غضب الأمواج في الايام العاصفة. وكان هذا هو عش حبها، كما كانت تدعوه دون تهكم، وحيث كانت تستقبل من يناسب مزاجها من الرجال، حين تشاء وكيفما تشاء، دون ان تتقاضى قرشاً واحداً من أي منهم، لانها كانت ترى ان الرجال هم الذين يسدون لها المعروف. وفي حالات نادرة قبلت بعض الهدايا، شريطة ألا تكون من الذهب. وكانت تدبر أمورها بمهارة لم يستطع أحد معها اثبات حقيقة سلوكها الشائن بادلة قاطعة. وفي مرة واحدة وصلت إلى حافة الفضيحة العلنية، عندما راجت شائعة تقول ان الاسقف دانتي دي لونا لم يمت خطأ بحادثة أكل طبق الفطر السام، وانما أكله وهو عارف، لانها هددته بذبح نفسها ان هو أصر على محاصرتها بنواياه

الدنسة. لم يسألها أحد ان كان ذلك صحيحاً، ولم تتحدث هي عنه، ولم يبدل أي شيء من حياتها. وكانت تقول منفجرة بالضحك بانها المرأة الوحيدة الحرة في المقاطعة.

لم تتخلف أرملة ناثاريت يوماً عن مواعيد فلورينتينو اريثا العرضية، ولا حتى في اكثر أوقاتها انشغالاً، وكانت تقابله دائماً دون الادعاء بانها تحبه ودون مطالبته بان يحبها، ولكن على أمل العثور على شيء يشبه الحب، انما دون مشاكل الحب. وفي بعض الأحيان كان هو الذي يذهب إلى بيتها، وعندئذ كانا يفضلان البقاء على المصطبة المطلة على البحر للابتلال بزبد ملح البارود، وتأمل شروق الدنيا كلها في الافق. وقد وضع كل جهده لتعليمها اساليب التهيج التي كان قد رأى آخرين يمارسونها من خلال ثقوب فندق العابرين، وكذلك المعادلات النظرية التي كان يدعو لها لوتاريو توغوت في ليالي مرحها. حدثها للموافقة على ان يريا بعضهما اثناء ممارستها الحب، وعلى استبدال وضعية المبشر المعروفة بوضعية الدراجة البحرية، أو الفروج المشوي، أو الملاك المعلق، وكادا ان يوديا بحياتيهما عندما انقطعت بهما حبال تعليق ارجوحة النوم وهما يحاولان ابتكار وضعية جديدة في الارجوحة. ولكنها كانت دروساً عقيمة. فالحقيقة انها كانت طالبة جسورة، لكنها تفتقر إلى ادنى موهبة في الزنى الموجه. لم تفهم أبداً مفاتن الصفاء في السرير. ولم تكن لها لحظة الهام، بل كانت تهيجاتها الجنسية جلدية خارجية تأتي في غير اوانها: يالله من جماع كئيب. وقد عاش فلورينتينو اريثا زمناً طويلاً وهو مخدوع بانه الوحيد، وكانت تشارك في بثه هذا الاعتقاد، إلى ان جعلها سوء الطالع تتكلم وهي نائمة. وشيئاً فشيئاً، أخذ يستجمع وهو يسمعها اثناء نومها، اجزاء تصريح ابحار أحلامها، وتوغل ما بين جزر حياتها السرية المتعددة. وهكذا علم انها لا تسعى إلى الزواج منه، ولكنها تشعر بانها مربوطة إلى حياته برابطة العرفان بالجميل الكبير لانه هو الذي افسدها. وقد قالت ذلك كثيراً:

- انني اعبدك لانك جعلتني قحبة.

ولم تكن تنقصها المبررات لذلك. فقد جردها فلورينتينو اريثا من عذرية زواج عادي، هي أشد وبالاً من العذرية الخَلْقية ومن زهد الترمل. وعلمها انه لا شيء مما يمارس في السرير هو لا أخلاقي ما دام يساهم في استمرار الحب. وعلمها شيئاً آخر سيكون منذ ذلك الحين هو مبر ر وجودها: اقنعها ان الانسان يأتي الى الحياة بعدد محدد من الضروب، وان تلك التي لا تستنفد، لسبب ذاتي أو خارجي، ارادي أو جبري، تضيع إلى الابد. وكانت فضيلتها هي فهم ذلك وتطبيقه بحذافيره. ومع ذلك، فان فلورينتينو اريثا، الذي يظن بانه يعرفها اكثر من أي كان، لم يستطع ان يفهم كيف تكون مرغوبة إلى هذا الحد، امرأة ذات أساليب

شديدة الصبيانية، اضافة إلى انها لا تتوقف عن الحديث في السرير عن كآبتها على زوجها الميت. والتغيير الوحيد الذي خطر له، ولم يستطع أحد نقضه، هو ان أرملة ناثاريت كانت تعوض برقتها الفائضة ما ينقصها من الفنون الميدانية. أصبحا يلتقيان أقل فيما هي توسع من نطاق ممتلكاتها، ويتفحص هو ممتلكاته عساه يجد مهدئاً لآلامه القديمة في قلوب مبلدة اخرى، ثم نسيا بعضهما في نهاية الأمر دون آلام.

كان ذلك هو أول حب سريري لفلورينتينو اريثا. ولكنه بدلاً من أن يقيم معها اتحاداً مستقراً، كما كانت تحلم أمه، استغله كلاهما للانطلاق في الحياة. فقد طور فلورينتينو اريثا أساليب بدت بعيدة عن التصديق، بالنسبة لرجل صموت وضامر مثله، متسربل بملابس كملابس شبح من زمن آخر. ومع ذلك، كانت هناك نقطتان لصالحه. احداهما هي عينه الصائبة في التعرف فوراً على المرأة التي تنتظره، حتى ولو كانت وسط حشد من الناس، ولكنه حتى في هذه الحالة كان يغازلها بتحفظ، لانه كان يشعر انه لا شيء يسبب العار والذل اكثر من الصد. والنقطة الثانية هي انهن كنّ يميزنه فوراً كمتوحد بحاجة إلى الحب، وكمعوز من الشارع بذل كلب مضروب يقدم خدماته دون شروط، وبلا أية مطالب، ودون انتظار شيء آخر منه سوى راحة الضمير في اسداء المعروف اليه. وكان هذان هما سلاحاه الوحيدان، وبهما خاض معارك تاريخية. لكنْ في سرية مطلقة، وسجلها بصرامة مدون عقود في دفتر مُشفّر؛ من النوع الذي يعرفه الكثيرون بعنوان ينم عن كل شيء: هن. وأول سجل في دفتره كان سجل الأرملة ناثاريت. وبعد خمسين سنة من ذلك، وعندما تحررت فيرمينا داثا من حكمها القدسي، كان لديه خمسة وعشرون دفتراً تضم ستمائة وعشرين سجلاً لغراميات مستمرة، عدا المغامرات العابرة التي لا تحصى والتي لا تستحق ولو مجرد ملاحظة احسان صغيرة.

وبعد ستة شهور من الغراميات الخارقة للمألوف مع أرملة ناثاريث، اقنع فلورينتينو اريثا نفسه بانه قد اجتاز عذاب فيرمينا داثا. ولم يعتقد بذلك فحسب بل انه طرحه عدة مرات مع ترانسيتو اريثا خلال السنتين اللتين دامتها رحلة الزواج، وتابع الايمان به بشعور من التحرر اللامحدود، إلى ان رآها فجأة ودون ايحاء، سلخني من قلبه، في يوم أحد من أيام نجمه المنحوس، وهي خارجة من القداس ممسكة بذراع زوجها ومحاطة بفضول ورياء وسطها الجديد. فالسيدات النبيلات اللواتي كنّ يحتقرنها أول الأمر ويسخرن من كونها دخيلة بلا لقب، رحن يتهافتن لتشعر بانها واحدة منهن. فيما تسكرهن هي بسحرها. لقد تسنمت وضعها كزوجة دنيوية بجدارة جعلت فلورينتينو اريثا يحتاج للحظة من التفكير للتعرف اليها. كانت امرأة اخرى. رصانة ال[illegible] [illegible]بيرة، الحذاء العالي، القبعة الرقيقة المزينة

بريشة طائر شرقي ملونة كل ما فيها كان مختلفاً وبسيطا، كما لو كان فيها منذ نشأتها. وجدها اكثر جمالاً وشباباً من أي وقت مضى، ولكنها أبعد من ان تكون له اكثر من أي وقت مضى، ولم يدرك سبب ذلك إلى ان رأى انتفاخ بطنها تحت الفستان الحريري الفضفاض. لقد كانت حاملاً في شهرها السادس، لكن اكثر ما أثر فيه هو أنها تشكل مع زوجها ثنائياً محترماً، وانهما يتصرفان بالدنيا بسيولة تجعلهما يبدوان وكأنهما يطفوان فوق صخور الوقع. لم يشعر فلورينتينو اريثا بالحسد ولا الغضب، وانما باحتقار شديد لنفسه. أحس بانه بائس، وقبيح، ووضيع، وانه ليس غير جدير بها فقط، بل وبأية امرأة اخرى فوق وجه الارض.

لقد عادت اذن. عادت دون اي سبب تندم على الانقلاب الذي احدثته في حياته. ولكن على العكس: كان جزعه يتناقص، خصوصاً بعد ان اجتاز السنوات الأولى. أما بالنسبة لها فالأمر اكثر من ذلك، هي التي وصلت إلى ليلة الزفاف بغشاوة براءة، كانت قد بدأت تفقدها خلال الرحلة في مقاطعة ابنة الخال هيلديبراندا. ففي فايدوبات فهمت اخيراً لماذا يطوف الديك حول الدجاجات، وشاهدت طقوس الحمير البهيمية، ورأت ولادة العجول، وسمعت بنات الخال يتحدثن بطبيعية عن أزواج من العائلة ما زالوا يمارسون الحب، وعن سبب وكيف توقف آخرون عن ممارسته رغم استمرارهم في العيش معاً. وكان حينئذ ان بدأت ممارسة الحب منفردة، يراودها احساس غريب بانها تكتشف شيئاً كانت غرائزها تعرفه منذ الأزل، فعلت ذلك في السرير أولاً، وهي تكتم انفاسها كي لا تفضح نفسها في حجرة النوم التي تتقاسمها مع نصف دزينة من بنات الخؤولة، ثم بعد ذلك بيديها الاثنتين وهي منبطحة على ارضية الحمام دون هم، بينما شعرها مفلت وهي تدخن سجائرها الأولى. لقد كانت تفعل ذلك دائماً مع نغص شكوك الضمير التي لم تتجاوزها إلا بعد زواجها، وكان تفعله بسرية مطلقة. بينما بنات خؤولتها يتفاخرن فيما بينهن ليس في عدد المرات يومياً فحسب، بل وبشكل وحجم اعضاءهن أيضاً. ومع ذلك، ورغم سحر تلك الطقوس الأولية، فقد استمرت على اعتقادها بان فقدان العذرية هو تضحية دموية.

حتى ان حفلة زفافها، وهي واحدة من أضخم حفلات اواخر القرن الماضي. جرت بالنسبة لها على أعتاب الرعب. وقد اثر فيها كرب شهر العسل اكثر بكثير من الفضيحة الاجتماعية لزواجها من وجيه لاثاني له في تلك السنوات. فمنذ الاعلان عن الزفاف في القداس الكبير في الكتدرائية، عادت فيرمينا داثا تتلقى رسائل مغفلة التوقيع، بعضها يتوعدها بالموت، لكنها لم تكن لتشعر بها، حيث كان كل الخوف الذي بداخلها مشغول بعملية الاغتصاب الوشيكة. لقد كانت تلك هي الطريقة الصحيحة - رغم انها لم تفعل ذلك عن وعي - في معاملة الرسائل المغفلة من أبناء طبقة عودها سخرية التاريخ على احناء رأسها

أمام الوقائع الناجزة. وهكذا بدأ تحول جميع من كانوا ضدها للوقوف إلى جانبها كلما أصبح الزفاف أمراً لا رجعة فيه. وقد لاحظت هي ذلك في التبدل التدريجي لمواكب النساء الزرق المتوددات، اللواتي انزلهن التهاب المفاصل والحقد من مقامهن، واللواتي اقتنعت يوماً بعدم جدوى مكائدهن، فظهرن دون سابق انذار في حديقة البشارة، وكأنهن في بيتهن، محملات بوصفات للمطبخ وبهدايا العرافة. كانت ترانسيتو اريثا تعرف ذلك العالم، رغم انها عانت منه بنفسها هذه المرة فقط، وكانت تعلم ان زبوناتها سيأتينها في الايام السابقة للاحتفالات الكبرى ليطلبن منها اخراج جرارها المدفونة وأعارتهن مجوهراتهن المرهونة، لمدة أربع وعشرين ساعة فقط مقابل دفع فائدة اضافية. ولم يحدث منذ زمن بعيد كما حدث هذه المرة، اذ فرغت الجرار كيما تخرج السيدات ذوات الألقاب الطويلة من هياكلهن المظلمة ويظهرن مشعات، بمجوهراتهن الخاصة المستعارة، في حفلة زفاف لن يتاح لهن رؤية حفلة بعظمتها في ما تبقى من القرن، والتي كان مجدها الأخير هو ان عرابها كان الدكتور رافائيل نونيث، رئيس الجمهورية لثلاث مرات، الفيلسوف والشاعر وواضع كلمات النشيد الوطني، كما جاء في بعض المعاجم الحديثة حينئذ. وصلت فيرمينا داثا إلى المذبح الكبير في الكتدرائية ممسكة بذراع ابيها، الذي منحته بدلة الاتيكيت مظهراً خاطئاً من الوقار لمدة يوم واحد. وتزوجت إلى الأبد مقابل مذبح الكتدرائية الكبير في صلاة تكليل شارك فيها ثلاثة اساقفة في الساعة الحادية عشرة من صباح يوم جمعة ترنييداد المقدسة المجيد، ودون أي خاطر من شفقة نحو فلورينتينو اريثا، الذي كان يعاني حينها الحمى، ويميت نفسه من أجلها، في مركب لن يحمله إلى النسيان. وقد احتفظت اثناء المراسم الدينية، ثم اثناء الحفلة فيما بعد، بابتسامة بدت وكأنها مثبتة بالاسبيداج، لمحة بلا روح فسرها بعضهم بانها ابتسمة الفوز الساخرة، ولكنها لم تكن في الحقيقة سوى وسيلة بائسة لمدارة خوفها كعذراء تزوجت لتوها.

ولحسن الحظ ان بعض المصادفات، اضافة إلى تفهم الزوج، حلت مسألة لياليها الثلاث الاولى دون ألم. لقد كان امرا صادراً عن العناية الألهية، ان سفينة الكومباني جنرال ترانساتلانتيك ببرنامج رحلاتها المتقلب رضوخا لطقس الكاريبي السيء، أعلنت قبل ثلاث أيام من الرحلة عن تقديم موعد لانطلاق اربعاً وعشرين ساعة، اي انها لن تبحر الى روشيل في اليوم التالي للزفاف، وانما في ليلة الزفاف نفسها. لم يصدق أحد أن ذلك التغير ليس مفاجأة اخرى من مفاجآت هذا العرس السارة، وقد انتهت الحفلة بعد منتصف الليلة على سطح عابرة المحيطات المضاءة، بمرافقة فرقة اوركسترا من فيينا كانت تدشن في تلك الرحلة أحدث فالسات جوهان ستراوس. وهكذا جرى حمل الاشابين المبلين بالشمبانيا قسراً إلى اليابسة بمساعدة زوجاتهم المكدرات، حين بدأوا يسألون النُدُل ان كانت هناك قمرات

غير محجوزة لمواصلة الحفلة حتى باريس. وقد رأى آخر الذين نزلوا لوريتشو داثا يجلس على الأرض في عرض الطريق مقابل الخمارات ببدلة الاتيكيت المتسخة، وهو ينتحب بصرخات مولولة، كما يبكي العرب موتاهم، مستريحاً فوق بركة ماء آسن ربما هي بركة دموع.

لا في الليلة الأولى ذات البحر الهائج، ولا في الليلة التالية ذات الابحار الهادىء، ولا في اية ليلة اخرى من ليالي حياتها الزوجية الطويلة جداً جرت أعمال بربرية من تلك التي كانت فيرمينا داثا تخافها. فالليلة الأولى، ورغم ضخامة السفينة وفخامة القمرات، كانت اعادة رهيبة للرحلة في سفينة ريوهاتشا، وكان زوجها طبيباً خدوماً لم ينم لحظة واحدة وأمضى الليل في مواساتها، وهو الشيء الوحيد الذي يستطيع عمله طبيب بارز لعلاج دوار البحر. ولكن العاصفة هدأت في اليوم الثالث، بعد الخروج من ميناء غوايرا، وحتى ذلك الحين كانا قد أمضيا معاً وقتاً طويلاً وتحدثا كثيراً حتى أصبحا يشعران بانهما صديقان قديمان. وفي الليلة الرابعة، عندما استعاد كل منهما عاداته المألوفة، فوجىء الدكتور اوربينو بان زوجته الشابة لا تصلي قبل النوم. وكانت صريحة معه: ان نفاق راهبات المدرسة قد أثار فيها عداء للصلوات، لكن ايمانها كان راسخاً، وقد تعلمت الحفاظ عليه بصمت. قالت: «أفضل التفاهم مع الرب مباشرة». وتفهم هو مبرراتها، ومنذ ذلك الحين مارس كل منهما الدين نفسه على طريقته. لقد كانت فترة خطوبتهما قصيرة، لكنها خارجة عن مألوف تلك الحقبة كثيراً، فالدكتور اوربينو كان يزورها في بيتها، دون رقابة، مساء كل يوم. ما كانت لتسمح له بان يمس طرفاً من أطراف أصابعها قبل المباركة الاسقفية، لكنه لم يحاول ذلك أيضاً. وفي الليلة الأولى من هدوء البحر، وفيما هما بملابسهما في السرير، بدأ أولى مداعباته، وقد فعل ذلك بحذر شديد، حتى بدا لها انه من الطبيعي ان ترتدي قميص نومها. مضت لاستبدال ملابسها في الحمام، ولكنها أطفأت انوار القمرة قبل ذلك، وعندما خرجت بقميص نومها دست خرقاً في شقوق الباب، لتعود إلى السرير في ظلام دامس. وفيما هي تفعل ذلك، قالت بمزاج رائق:

ـ ماذا تريد يادكتور. انها المرة الأولى التي أنام فيها مع رجل غريب.

أحسّ بها الدكتور اوربينو وهي تنزلق إلى جانبه مثل حيوان صغير مضطرب، محاولة البقاء بعيداً عنه قدر المستطاع في سرير بحري حيث من الصعب وجود اثنين معاً دون ان يمسا بعضهما. امساك يدها، الباردة والمتشنجة من الرعب، وشبك الأصابع، وبدأ يروي لها بصوت هامس ذكرياته عن رحلات اخرى في البحر. كانت متوترة من جديد، لانها عندما رجعت إلى السرير انتبهت إلى انه قد تعرى تماماً اثناء وجودها في الحمام، وهذا أحيا خوفها

من الخطوة التالية. لكن الخطوة التالية تأخرت عدة ساعات، فقد تابع الدكتور اوربينو الحديث بتمهل شديد، فيما هو آخذ بنيل ثقة جسدها ميليمتراً بعد ميليمتر. حدثها عن باريس، عن الحب في باريس، عن عشاق باريس الذين يتبادلون القبلات في الشارع، وفي الامنيبوس، وعلى مقاهي الارصفة البديعة المفتوحة على لفحات النار وعلى اوكورديونات الصيف الخافتة، ويمارسون الحب وقوفاً على ضفاف السين دون أن يزعجهم أحد. وفيما هو يتحدث في العتمة، داعب انحناءة عنقها برؤوس أصابعه، وداعب زغب ذراعيها الحريري، وبطنها المراوغ، وعندما أحس أن التوتر قد تراجع قام بمحاولته الأولى لرفع قميص نومها، لكنها أوقفته بحركة تقليدية من حركاتها. وقالت: «أستطيع عمل ذلك وحدي». نزعته عنها فعلاً، ثم بقيت ساكنة، بحيث كان بامكان الدكتور اوربينو ان يعتقد بانها ليست هناك، لولا بريق جسدها في الظلام.

عاد بعد هنيهة للامساك بيدها، فأحسها حينئذ دافئة ومتحررة، لكنها ما تزال رطبة بندى طازج. بقيا لحظة اخرى صامتين وساكنين، هو يتحين الفرصة للخطوة التالية، وهي تنتظر تلك الخطوة دون أن تدري من أين ستأتيها، فيما الظلام يتسع مع ازدياد حدة تنفسها. أفلتها فجأة وقام بالقفزة في الفراغ: بلل طرف اصبعه الوسطي بلسانه ولمس لمساً خفيفاً حلمة نهدها الغافل، فأحست بشحنة موت، كما لو مس فيها عصباً حياً. وفرحت لكونها في الظلام حتى لا يرى تورد وجنتيها الحارق الذي هزها حتى أعماق جمجمتها. وقال لها بهدوء: «اهدئي. ولا تنسي انني أعرفهما.» أحس بها تبتسم، وكان صوتها عذباً وجديداً حين قالت في العتمة:

ـ أذكر ذلك جيداً، وحتى الآن لم يبارحني الغيظ.

عرف حينئذ بانهما قد اجتازا رأس الرجاء الصالح، فعاد يمسك بيدها الكبيرة اللدنة، وغمرها بقبلات يتيمة، بدأ بمشط اليد الغليظ، فالاصابع الطويلة المتبصرة، والاظافر الشفافية، ثم خطوط حظها المتشابكة في الكف المتعرق. ولم تعرف كيف وصلت يدها إلى صدره، واصطدمت بشيء لم تستطع تحديده. فقال لها: «إنها تعويذة». داعبت شعر صدره، ثم أمسكت اجمة الشعر كلها بأصابعها الخمس لتنتزعها من جذورها. «بقوة اكبر» قال لها. حاولت، إلى الحد الذي عرفت انها لا تؤذيه، ثم كانت يدها هي التي بحثت عن يده التائهة في الظلام. لكنه لم يمكنها من شبك أصابعها بأصابعه وإنما أمسكها من معصمها وقاد يدها على جسده بقوة لا مرئية ولكنها متقنة التوجيه، الى ان أحست بلفحة ملتهبة من حيوان متقد، بلا شكل مادي محدد، لكنه متلهف ومنتصب، وعلى العكس مما تصوره، بل وعلى العكس مما كانت هي نفسها ستتصوره، لم تسحب يدها، ولم تتركها ساكنة حيث وضعها، وانما سلمت نفسها جسداً وروحاً للعذراء المقدسة، وضغطت اسنانها خشية ان تضحك من

فقال :

ـ لا . الدرس الآن سيكون في الحب.

عندئذ نزع الشرشف من فوقها، فلم تكتف هي بعدم الاعتراض، بل قذفت الشرشف عن السرير بضربة من قدميها، لانها لم تعد تحتمل الحر. كان جسدها ملتوياً ومرناً، واكثر جدية مما يبدو عليه وهي بملابسها، تنبعث منه رائحة حيوان بري يمكن تمييزها بين جميع نساء الدنيا. وفيما هي عزلاء تحت الضوء، صعدت دفقة دم يغلي إلى وجهها، ولم يخطر لها لاخفاء ذلك سوى التعلق بعنق زوجها، وتقبيله بعمق وقوة إلى ان استنفدا في القبلة كل الهواء الذي تنفساه.

كان واعياً انه لا يحبها. لقد تزوج منها لاعجابه بشموخها وجديتها وقوتها، وكذلك لشيء من كبر يسائه، لكنه وفيما هي تقبله للمرة الأولى تأكد من انه لن يجد أي عائق لاختراع حب جيد. لم يتحدثا بذلك في هذه الليلة الأولى التي تحدثا فيها بكل شيء حتى الفجر، ولن يتحدثا في ذلك أبداً. ولكن أيا منهما لم يخطىء على المدى البعيد.

عند الفجر، حين ناما، كانت ما تزال عذراء، لكنها لن تبقى كذلك طويلاً. وفعلاً، فبعد ان علمها، في الليلة التالية، رقص فالسات فيينا تحت سماء الكاريبي النجمية، كان عليه ان يذهب إلى الحمام بعدها، وعندما رجع الى القمرة وجدها تنتظره عارية في السرير. وكانت هي حينئذ من اتخذ المبادرة، فاستسلمت له دون خوف، ودون ألم، وبسعادة الاقدام على مغامرة في عرض البحر، دون ان يخلف الطقس الدامي اثراً سوى وردة الشرف على شرشف السرير. كلاهما فعل ذلك جيداً، بشكل أشبه بمعجزة، وتابعا عمله جيداً ليلاً ونهاراً وفي كل مرة بشكل أفضل من سابقتها خلال بقية الرحلة، وعندما وصلا إلى لا روشيل كانا متفاهمين كعاشقين قديمين.

بقيا ستة عشر شهراً في اوربا، متخذين من باريس قاعدة لهما، ومنطلقين في رحلات قصيرة إلى البلدان المجاورة. وقد مارسا الحب يومياً خلال هذه الفترة، ومارساه اكثر من مرة خلال أيام الآحاد الشتوية، حيث كانا يتداعبان في الفراش حتى ساعة الغداء. كان رجلاً مندفعاً اضافة إلى انه حسن التدريب، ولم تكن مخلوقة لتسمح لأحد بالتفوق عليها، وهكذا كان عليهما ان يقبلا باقتسام السلطة في السرير. وبعد ثلاثة شهور من الحب المحموم، أدرك هو ان أحدهما مصاب بالعقم، فخضعا لفحوص طبية صارمة في مستشفى سالبيتريير، حيث كان قد أمضى فترة تدريبه العملي كطالب مقيم. كانت فحوصات مضنية ولكن دون جدوى. ومع ذلك، وعندما تخليا عن التفكير بالامر، حدثت المعجزة بلا أية وسيلة علمية. وحين رجعا إلى الوطن في نهاية السنة التالية، كانت فيرمينا حبلى في الشهر السادس، وترى

جنونها، وبدأت تتعرف باللمس على عدوها المشبوب، متعرفة على حجمه، وقوة رأسه، وامتداد اجنحته، مرتعبة من تصميمه لكنها مشفقة على عزلته، ومتمسكة به بفضول متقص بشكل لو أن أحداً أقل خبرة من زوجها لظن انها مداعبات. استعان بآخر قواه لمقاومة دوار هذه المبارزة القاتلة، إلى ان أفلتته بظرافة طفولية، وكأنها تلقي به إلى الزبالة، وقالت :

ـ لم أفهم أبداً كيف هو هذا الجهاز.

عندئذ شرح لها كل شيء بجدية وبأسلوبه كاستاذ، فيما هو يقود يدها على المواضع التي يذكرها، وهي تنقاد له بطاعة تلميذة مثالية. ولمح في لحظة مواتية إلى ان كل ذلك سيكون أسهل لو ان الضوء منار، ولكنها أوقفت ذراعه قائلة : «بيدي أرى أفضل». الحقيقة انها كانت تريد اشعال النور، لكنها تريد عمل ذلك بنفسها دون أن يأمرها أحد، وهذا ما فعلته. عندئذ رآها في وضع جنيني، مغطاة بالشرشف، تحت الضوء المفاجىء. لكنه رآها وهي تعود لتمسك بحيوان الفضول دون تكلف، وتقلبه ظهراً وباطناً، وتتفحصه باهتمام أخذ يبدو اهتماماً غير علمي، وقالت مستنتجة : «يا لقباحته، انه أقبح منظراً مما للنساء». كان متفقاً معها في الرأي، وأشار إلى نقائص أخرى أكثر أهمية من القبح. قال : «انه كمثل الابن الاكبر، يقضي المرء حياته وهو يعمل من أجله مضحياً بكل شيء في سبيله، وعندما تحين ساعة الجد يتصرف كما يحلو له». تابعت تفحصه، والسؤال عما يفيد هذا، وما فائدة ذاك، وعندما رأت نها حصلت على المعلومات الكافية رازته بيديها الاثنتين، لتتأكد من ان وزنه كذلك لا يستحق الذكر، ثم افلتته باعوجاجة ازدراء، وقالت :

ـ وأرى كذلك ان فيه أشياء كثيرة لا حاجة لها.

توقف حائراً. فالفكرة الاساسية في موضوع تخرجه هي هذه :

استحسان تبسيط الجهاز البشري. اذ كان جسم الانسان يبدو له طرازاً قديماً، ذا وظائف كثيرة مكرورة أو لا فائدة منها، كانت لازمة في عصور اخرى للجنس البشري، ولكن ليس لعصرنا. أجل : يمكن ان يكون أبسط وأقل تعرضاً للعطب أيضاً. واختتم قائلاً : «هذا شيء لا يستطيعه إلا الله بالطبع، ولكن لا بأس من اقراره بشكل نظري». ضحكت سعيدة، بطريقة طبيعية جداً، فانتهز الفرصة لاحتضانها وقبلها القبلة الأولى من فمها. هردت عليه بقبلة مماثلة، وتابع قبلاته الخفيفة على الوجنتين، والأنف، والجفون، فيما يده تنزلق تحت الشرشف، وداعب عانتها المستديرة والسبطة : كعانة يابانية. لم تُبعد يده، لكنها حتفظت بيدها في حالة تأهب خوفاً من تقدمه خطوة اخرى.

قالت :

ـ لن نستمر في درس الطب.

انها أسعد امرأه على وجه الأرض. والابن الـذي رَغبـا فيه كلاهما، والذي ولد تحت برج الدلو، عُمّد على شرف جده الميت بالكوليرا.

كان من المستحيـل معـرفـة ان كانت أوربـا أم الحب هو ما غيرهما، لان الامرين حدثا في وقت واحد. كلاهما كان قد تغير، وبعمق، ليس في علاقتهما ببعضهما فقط، وانما كذلك مع الجميع، وهـذا ما ادركـه فلورينتينـو اريثـا حين رآهما خارجين من القداس بعد اسبوعين من عودتهما، في يوم أحد نكبته ذاك. عادا بمفهوم جديد للحياة، محملين بمستجدات الدنيا: هو بمستجـدات الأدب والموسيقى، ومستجـدات علمـه قبـل كل شيء، كما عاد باشـتراك في لوفيغارو، كي لا يفقد خيط الواقع، واشتراك آخر في ريفيو دي دو موندس كي لا يفقد خيط الشعـر. كما اتفق مع عميله المكتبي في باريس لتـزويـده بجـديـد الكتّـاب الأوسع انتشاراً، كانـاتـول فرانس وبيـير لوتي، ومؤلفات مفضليه، كريمي دي غورمونت وبول بورجيه، أما أميـل زولا فلا، فهـو يرى انـه لا يطـاق، رغم اقتحامه الجريء لمحاكمة دريفوس. وقد وعد المكتبي نفسـه بان يرسـل له بالـبريـد كل جديـد ومغـر في كاتـالـوج ريكورد، وخصوصاً من موسيقى الكـامـيرا، ليحتفـظ باللقب الـذي اكتسبـه ابوه عن جدارة كأول داعيـة لموسيقى الكونشيرتو في المدينة.

أما فيرمينا داثا، المعارضة دائماً لصرامة الموضة، فقد أحضرت معها ستة صناديق ملابس لمختلف الفصول، اذ ان الماركات الشهيرة لم تقنعها. كانت قد ذهبت إلى توليرياس، في عز الشتـاء، لحضـور استعـراض مجمـوعـة ازيـاء وورث، طاغيـة الأزياء الراقية الذي يفرض ما يشـاء، والشيء الـوحيـد الـذي حصلت عليه كان التهاب قصبات طرحها في الفراش خمسة أيـام. وبـدا لها ليفـير يـر أقـل غطـرسة وطمعاً، لكنها اتخذت قرارها الحكيم بالحصول على مايعجبهـا من محلات التصفيـات، رغم ان زوجهـا كان يقسم لها أغلظ الايـمان بانها ملابس موتى. وهكـذا أحضـرت كميـات من الاحـذيـة الايطـاليـة التي بلا ماركـة، فضلتهـا على موديـلات فيري الـذائعة الصيت والشاذة، وجلبت مظلة من دوبوي، حمراء كنيران جهنم، كانت موضـوعـاً كتب فيه كثيراً صحفيو مجتمعنا المرتعدون. واشترت قبعة واحدة من تصميم مدام ريبـو، لكنهـا ملأت صنـدوقـاً كامـلاً بعناقيد الكرز الاصطناعي، وفروع مختلف انواع الـزهـور التي وجـدتها، وكميات من ريش النعام، وريش الطواويس، وذيول ديكة أسيوية، وطيـور تَدْرُج، وأفـاع وتشكيلة متنوعة من الطيور الغريبة المحنطة ذات الاجنحة المفتوحة، أو الافواه الصارخة، أو العيون المحتضرة: كل هذه الاشياء جعلت القبعات نفسـها تبدو وكأنها قبعـات اخـرى طوال السنـوات العشـرين الاخيرة. أحضرت مجموعة مرواح يدوية من بلاد العـالم المختلفـة، كل واحـدة منهـا مخصصـة لمنـاسبـة. وأحضرت عطراً جذاباً انتقته من بين

أصناف كثيرة في محل عطورات بازار تشاريت، قبل ان تخربه رياح الربيع برمادها، لكنها لم تستخدمه سوى مرة واحدة، لانها لم تعد تتعرف على نفسها بهذا العطر المختلف. وأحضرت كذلـك علبـة مكيـاج كانت آخـر صرعـة في سوق الاغراء، وكانت أول أمرأة خرجت به إلى الحفلات، حين كان مجرد التجمل في مكان عام يعتبر عملاً منافياً للحشمة.

وحملت معهـا كذلـك ثلاث ذكـريـات لا تمحى: الافتتاح الذي لم يسبق له مثيل لمسرحية حكايات هوفمان في باريس، والحريق الرهيب الذي أتى على جميع جندولات البندقية تقريباً مقـابـل سـاحـة سان ماركـوس، والذي شاهداه بقلب يعتصره الألم من نافذة فندقهما، ورؤ ية اوسكـار وايلد الخـاطفـة اثنـاء هطول أول الثلوج في كانون الثاني. ولكن بين هذه الذكريات وغيرها الكثير، احتفظ الدكتور خوفينال اوربينو بذكرى رغبة كان يأسف دوماً لانه لم يستطع تقـاسمهـا مع زوجتـه، وتعـود إلى الـوقت الذي كان ما يزال فيه طالباً عازباً في باريس. انها ذكرى فيكتور هوغو، الذي كان ينعم عندنا بشهرة مثيرة ليست مرتبطة بشهرة مؤلفاته. ذلك ان احداً قال عنه بانه قال، دون أن يكون هناك من سمعه في الواقع، بان دستورنا ليس لموطن بشـر وانـما لموطن ملائكـة. فأصبحت له منـذ ذلك الحين منزلة خاصة، وصار معظم مواطنينا الكثـيرين الـذين يسافرون إلى فرنسا يتهالكون لرؤ يته. وقد قام ستة طلاب، بينهم الدكتور خوفينال اوربينو، بتنظيم حراسة مقابل بيته في شارع ايليا، وفي المقاهي التي يقال بانه سيأتيها بالتأكيـد، دون ان يأتي أبـداً، ثم تقـدمـوا آخـر الامر بطلب خطي للقاء خاص معه، باسم ملائكة دستور ريونغرو. ولم يتلقوا أي رد. وفي احد الأيام، وفيما خوفينال اوربينو يمر مصادفة مقـابـل حديقـة اللوكسمبـورغ رآه وهـو يخرج من مجلس الشيـوخ برفقـة امرأة شابة تقوده من ذراعـه. كان هرماً جداً، يتحـرك بمشقـة، لحيتـه وشعـره أقل اشعاعاً مما هما عليه في صوره، ويرتدي معطفاً يبدو وكأنه لشخص أضخم منه جسداً. ولم يشأ افساد الذكرى بتحية وقحة: كانت تكفيـه هذه الـرؤ يا شبه اللاواقعية كزاد للحياة كلها. وعندما عاد إلى باريس متزوجاً، في ظروف تمكنه من رؤ يته بشكل شبه رسمي، كان فيكتور هوغو قد مات.

وكعزاء على ذلك، حمل خوفينال وفيرمينا الذكرى المشتركة لمساء يوم ثلجي، اختلطا فيه بجمـاعـة كانت تتحـدى العـاصفـة مقـابل مكتبة صغيرة في بولفار لوس كابوتشينوس، وكان اوسكـار وايلد في الـداخـل. وحـين خرج اخـيراً، أنيقـاً حقـاً، وربما واعياً جيداً انه كذلك، أحاطت به المجموعة تطلب منه التوقيع على كتبه. توقف الدكتور اوربينو لرؤ يتة فقط، لكن زوجته المندفعة أرادت اجتياز البولفار ليوقع لها على الشيء الوحيد الذي رأته مناسباً في غياب الكتـاب: قفـازهـا البديع الطويل الأملس، المصنوع من جلد الغزال، بلونه الذي يشبه لون بشرتها الحديثة الزواج، كانت متأكدة ان رجلاً بهذه الرقة سيقدر عالياً لفتة كهذه. لكن الزوج

عارض بإصرار، وحين حاولت التقدم رغم حججه، لم يعد يشعر بانه سيكون قادراً على العيش متجاوزاً العار. فقال لها:

ـ اذا اجتزت الشارع، فستجدينني ميتاً حين ترجعين.

كان سلوكاً طبيعياً فيها. فقبل زواجها بسنة واحدة كانت تتحرك في الدنيا بنفس الطلاقة التي كانت عليها وهي طفلة في بلدة سان خوان دي لاثيناغا المميتة، وكأنها ولدت وهي تعرف الدنيا، وكانت تتمتع بسهولة في معاملة الغرباء تاركة زوجها في حيرة من أمره، وبموهبة سحرية في التفاهم بالقشتالية مع أي كان وفي أي مكان. وكانت تقول وهي تضحك ساخرة: «المرء يتعلم اللغات حين يريد ان يبيع، أما عندما يريد الشراء فالجميع يفهمونه كيفما كان». من الصعب تصور أحد قادراً على تمثل حياة باريس اليومية بهذه السرعة وهذه الغبطة، وعلى تعلم حبها في الذكرى رغم امطارها الدائمة. ومع ذلك، فعندما رجعت إلى الوطن مثقلة بهذه التجارب المجتمعة، منهكة من السفر وناعسة من الحبل، كان أول ما سألوها اياه في الميناء هو كيف بدت لها عجائب اوربا، فلخصت ستة عشر شهراً من السعادة في أربع كلمات من فظاظتها الكاريبية:

ـ انها الصخب قبل أي شيء.

يوم رأى فلورينتينو اريثا فيرمينا داثا عند مدخل الكتدرائية، وهي حبلى في الشهر السادس ومتمكنة تماماً من مكانتها الجديدة كامرأة حياة، اتخذ قراره الصارم بالحصول على لقب وثروة ليصبح جديراً بها. لم يتر وليفكر حتى بالعائق الماثل في كونها متزوجة، لانه قرر في الوقت ذاته، وكأن الأمر بيده، ان الدكتور خوفينال اوربينو سيموت. لم يكن يعرف متى ولا كيف، لكنه طرح الأمر وكأنه حدث محتم، لا يحتاج إلا إلى الانتظار دون تسرع ولاهيجان، وحتى لو بقي إلى نهاية العصور.

بدأ من البداية. مَثَل دون سابق اعلان في مكتب العم ليون الثاني عشر، رئيس مجلس الادارة والمدير العام لشركة الكاريبي للملاحة النهرية، وأبدى له استعداده لوضع نفسه تحت تصرفه. كان العم مستاء منه للطريقة التي تخلى بها عن وظيفة التلغراف المحترمة في لافيا دي ليبفا، لكنه انساق مع قناعته بان البشر لا يولدون دوماً يوم تلدهم امهاتهم، وانما تجبرهم الحياة على ولادة انفسهم بأنفسهم ثانية ولمرات عديدة. ثم ان ارملة الاخ كانت قد توفيت في السنة السابقة، مع احقادها المتقدة ولكن دون ان تنجب ورثة. وهكذا منح ابن اخيه التائه عملاً.

كان ذلك قراراً تقليدياً من قرارات العم ليون الثاني عشر لوائيا. فتحت قشرة التاجر القاسي، كان يخبيء عبقرياً مجنوناً، سيان لديه تفجير ينبوع ليمونادة في صحراء غواخيرا، أو اغراق جنازة ترفع الصليب بالدموع باغنية المؤثرة في هذا القبر المظلم، ولم يكن ينقصه برأسه المجعد وشفته السفلى سوى القيثارة واكليل الغار ليصبح نسخة مطابقة لنيرون الحارق في الميثولوجيا المسيحية. اما ساعات فراغه ما بين ادارته لسفنه العاجزة، التي ما زالت تعوم بمحض غفلة من الهلاك، ومشاكل الملاحة النهرية المتزايدة الخطورة يوماً بعد يوم، فكان يكرسها لاغناء قائمته الغنائية. ولم يكن يحب الغناء إلا في الجنازات. بصوته الذي يشبه

صوت مجدف في سفينة، والخالي من أي نظام اكاديمي، انما القادر على اداء نغمات شجية.

وقد روى له أحدهم ان انريكي كاروسو يستطيع تهشيم مزهرية وتفتيتها إلى شظايا بقوة صوته فقط، فحاول خلال سنوات عديدة ان يقلده بزجاج النوافذ. وكان اصدقاؤه يأتونه بأرق أنواع المزهريات التي يجلبونها في رحلاتهم عبر العالم، وينظمون له احتفالات خاصة ليتمكن اخيراً من تحقيق حلمه. لكنه لم يتوصل إلى ذلك أبداً. ومع ذلك، فقد كان في اعماق صوته الراعد بصيصاً من الرقة التي تفتت قلب سامعيه كما تفتت مزهريات كاروسو العظيم الزجاجية، وكان هذا هو سبب مكانته المحترمة في الجنازات. باستثناء جنازة واحدة، خطرت له فيها فكرة غناء **When wake up in Glory**، وهي اغنية جنائزية من لويزيانا، جميلة ومؤثرة، فأسكته القسيس الذي لم يفهم ذلك التدخل اللوثري في كنيسته.

وهكذا استطاع، وسط الاوبريهات والسيرنادات النابولية، ان يتبوأ بعبقريته الخلاقة وروحه العملية التي لا تلين، امارة الملاحة النهرية في عصره الزاهر. لقد بدأ من لا شيء، مثل شقيقيه المتوفين، ووصلوا جميعهم إلى حيث يشاؤون رغم وصمة كونهم أبناء طبيعيين، لم يعترف بهم آباؤهم أبداً. لقد كانوا زهرة ما كان يدعى حينئذ ارستقراطية منضدة التاجر، التي كان النادي التجاري هو هيكلها المقدس. ومع ذلك، وعندما امتلك الموارد التي تؤهله للعيش كالامبراطور الروماني الذي يشبهه، بقي العم ليون الثاني عشر يعيش في المدينة القديمة، لسهولة ممارسة أعماله، مع زوجته وابنائه الثلاثة، حياة تقشف في بيت صغير، مما ألصق به سمعة البخل ظلماً. وكانت رفاهيته الوحيدة اكثر بساطة: بيت على البحر، يبعد مسافة فرسخين عن مكاتب الشركة، لا اثاث فيه سوى ستة كراسي بلا مساند، وخابية ماء، وارجوحة نوم على الشرفة يستلقي عليها أيام الآحاد للتفكير. ولم يصفه أحد خيراً مما وصف هو نفسه حين اتهمه احدهم بانه ثري، اذ قال:

- لست ثرياً. أنا فقير يملك مالاً، وهو شيء مختلف. هذه الطريقة الغريبة في الحياة، التي امتدحها أحدهم يوماً في خطبة صحوجنوني، اتاحت له ان يرى على الفور ما لم يره أحد من قبل ولا من بعد في فلورينتينو اريثا. فمنذ اليوم الذي جاءه فيه طالباً منحه وظيفة في مكاتب الشركة، بمظهره الكئيب وسنوات عمره السبع والعشرين المبددة، أخضعه لاختبار صارم صرامة نظام عسكري قادر على قهر أشجع الشجعان. لكنه لم يتوصل إلى اخافته. وما لم يشك فيه العم ليون الثاني عشر أبداً هو ان شجاعة ابن اخيه هذه ليست وليدة الحاجة لكسب لقمة العيش، ولا وليدة صبر بهيمي ورثه عن ابيه، وإنما هي وليدة طموح غرامي لا يمكن لأية قوة في هذا العالم أو العالم الآخر ان تحطمه.

أسوأ سنوات العمل كانت هي الأولى، حين عينه كاتباً في الادارة العامة، والتي كانت تبدو مكتباً مفصلاً على مقاسه. كان لوتاريو توغوت، استاذ العم ليون الثاني عشر القديم في الموسيقى، هو الذي نصح هذا الاخير بتعيين ابن اخيه في وظيفة كتابية، لانه مستهلك للأدب لا يكل، رغم ان ما يقرأه من الأدب الرديء هو أضعاف ما يقرأه من الأدب الجيد. لم يول العمل ليون الثاني عشر اهتماماً لهذا التحديد عن نوعية الادب الرديئة التي يقرأها ابن اخيه، لان لوتاريو توغوت نفسه قال عنه دوماً انه أسوأ تلاميذه في الغناء، ومع ذلك فهو يُبكي حتى شواهد القبور. لكن الألماني كان محقاً على أية حال في أقل أمر فكر فيه. ففلورينتينو اريثا يكتب أي شيء بعاطفة جياشة، مما جعل الوثائق الرسمية تبدو أشبه بوثائق حب، وكانت الوثائق الابحار تخرج معه مقفاة رغم جهده لتفادي ذلك، وكان يسكب في الرسائل التجارية نفساً غنائياً يقلل من هيبتها. وهكذا جاءه العم بنفسه في أحد الايام برزمة من المراسلات التي لم تكن جديرة بان يضع توقيعه عليها، ومنحه الفرصة الاخيرة لانقاذ روحه.

قال له:

- اذا كنت عاجزاً عن كتابة رسالة تجارية فستتحول إلى جمع القمامة عن رصيف الميناء.

قبل فلورينتينو اريثا التحدي، وقام بجهود جبارة ليتعلم بساطة النثر التجاري الدنيوية، مقلداً نماذج من الأرشيف الموثق ومرصعاً رسائله بمقاطع منها كما كان يفعل باشعار الشعراء الرائجين من قبل. حدث هذا في الفترة التي أخذ يقضي فيها ساعات فراغه في زقاق الكتبة العموميين، مقدماً العون للعشاق الذين لا يحسنون الكتابة، بكتابة رسائلهم الغرامية المعطرة، ليفضفض عن قلبه كلمات الحب الكثيرة التي لم يعد يستطيع استخدامها في التقارير الجمركية. لكنه بعد ستة شهور، ورغم جميع محاولاته، لم ينجح في ليّ عنق اوزانه المتمادية.

- الشيء الوحيد الذي يهمني هو الحب.

فقال له العم:

- من المؤسف انه لا وجود للحب دون الملاحة النهرية.

نفذ تهديده بنقله لجمع القمامة من رصيف الميناء، لكنه وعد بترقيته خطوة خطوة على سلم الخدمة إلى ان يجد مكانه المناسب. وهكذا كان. لم يستطع أي عمل، مهما كان قاسياً أو مذلاً، هزيمته؛ ولم يثبط بؤس الاجر من عزيمته، كما انه لم يفقد أعصابه للحظة واحدة أمام عجرفة مسؤوليه. ولكنه لم يكن ساذجاً أيضاً: فكل من اعترض سبيله قاسى من نتائج تصميم كاسح، قادر على أي شيء، وراء مظهر البؤس الذي كان عليه، وكما رغب العم

ليون الثاني عشر وخطط بجعله يتعرف على كل سر من أسرار المؤسسة، فقد مرّ على جميع المناصب خلال ثلاثين عاماً من المثابرة والعناد في مواجهة كل الاختبارات. وقد ادارها جميعاً بكفاءة تستحق التقدير، دارساً كل خيط في تلك التيلة السحرية التي لها علاقة ما بصنعة الشعر، انما دون التوصل إلى احراز الميدالية الحربية التي طالما تاق اليها، ألا وهي كتابة رسالة تجارية مقبولة. رسالة واحدة فقط. ودون أن يخطط لذلك، بل ودون ان يدريه، راح يثبت بحياته سداد رأي ابيه الذي ردد حتى النفس الاخير انه لا أحد اكثر عملية، ولا حجّارين اكثر اصراراً ولا مدراء أكثر نباهة وخطراً من الشعراء. هذا على الأقل ما أخبره به العم ليون الثاني عشر، الذي اعتاد انه يحدثه عن ابيه اثناء اوقات الفراغ، وأعطاه عنه فكرة تصوره كحالم اكثر منه رجل أعمال.

روى له ان بيو الخامس لوائيا كان يستخدم المكاتب لأمور اكثر لطفاً من شؤون العمل، وانه رتب أموره ليخرج من البيت في جميع ايام الآحاد، متذرعاً بانه سيستقبل أو يودع سفينة ما. بل وصل به الأمر إلى وضع مرجل غير ذي نفع، مع صفارة بخارية في فناء الحانات، حيث كان أحدهم يقوم باطلاق الصفارة برموز الابحار حتى تسمع الزوجة ان هي كانت مصغية. وبعد حسابات اجراها، ابدى العم ليون الثاني عشر اقتناعه بان أم فلورينتينو اريثا قد حبلت به فوق طاولة مكتب غير مغلق في مساء يوم أحد لاهب، فيما زوجة ابيه تسمع من بيتها صفير وداع يطلقه مركب لم يسافر أبداً. وعندما اكتشفت امره كان الوقت قد فات لجعله يدفع ثمن سلوكه المشين، لانه كان قد مات. لقد عاشت سنوات طويلة بعده محطمة بمرارة عقمها، وطالبة من الله في صلواتها ان ينزل لعنته الابدية على البندوق.

لقد شوشت صورة الأب افكار فلورينتينو اريثا. كانت امه تحدثه عنه كرجل بلا ميول تجارية، وانه انتهى إلى العمل التجاري في الملاحة النهرية لأن شقيقه الاكبر كان معاوناً للربان الألماني جان ب. ايلبرس، أحد أوائل العاملين في الملاحة النهرية. وانه واخواه كانوا ابناء طبيعيين لأم واحدة، تعمل طاهية، وجميعهم يحملون لقبها بعد اسم أحد الباباوات الذي كانت تختاره لاعلى التعيين من سجل القديسين، باستثناء العم ليون الثاني عشر، فهو يحمل اسم الملك الذي كان يحكم عند مولده. ومن يدعى فلورينتينو هو جدهم لأمهم، وبهذا وصل الاسم إلى ابن ترانسيتو اريثا قافزاً فوق جيل كامل من الاحبار العظام.

لقد احتفظ فلورينتينو بدفتر كان ابوه يدون فيه أشعار الحب، وكانت ترانسيتو اريثا هي ملهمة بعض تلك القصائد، وكانت اوراق الدفتر مزينة برسوم قلوب جريحة. وقد فوجيء بأمرين: احدهما هو خط أبيه المطابق تماماً لخطه، رغم انه اختار هذا الاسلوب في الكتابة من أحد مناهج تعليم الخط لانه أعجبه اكثر من سواه. والامر الثاني هو عثوره على عبارة كان

يعتقد انها من بنات افكاره، ووجد أن أباه قد دونها في دفتره قبل ان يولد هو بكثير: ما يؤلمني في الموت هو ألا أموت حباً.

كان قد رأى كذلك صورتي ابيه الوحيدتين. احداهما ملتقطة في سانتافي، وهو صغير، كما كان عمره هو حين رآه لأول مرة، يرتدي معطفاً سميكاً يبدو فيه وكأنه محشور في جوف دب، ويستند إلى قاعدة تمثال لا تظهر منه سوى ساق جزمته الطويلة المبتورة. والطفل الذي يقف إلى جانبه هو العم ليون الثاني عشر معتمراً قبعة ربان سفينة. وفي الصورة الثانية كان أبوه مع مجموعة من المحاربين، من يدري في أي من الحروب الكثيرة، وكان يحمل أطول بندقية بين أفراد المجموعة وتفوح من شاربه في الصورة رائحة البارود. كان ليبرالياً وماسونياً، كما هما شقيقاه، ورغم ذلك كان يريد لابنه ان يدخل مدرسة الأكليريوس، لم يشعر فلورينتينو اريثا بالشبه بينه وبين ابيه كما كانوا يدعون، ولكن استناداً إلى اقوال العمل ليون الثاني عشر، فانهم كانوا يؤنبون بيو الخامس أيضاً لاسلوبه الغنائي فيما يكتبه من وثائق. لم يكن يشبهه على اي حال كما هو في صورتيه، وهو لا يشبهه فيما يحفظه عنه في ذكرياته، ولا في الصورة التي كانت ترسمها له أمه، وقد حسّن الحب منها، ولا في الصورة التي يشوهها العم ليون الثاني عشر بقسوته الظريفة. ومع ذلك، فقد اكتشف فلورينتينو اريثا هذا الشبه بعد سنوات طويلة، فيما هو يسرح شعره أمام المرآة، وعندها فقط أدرك ان المرء يعرف انه قد بدأ يشيخ حين يبدأ بالتشابه مع أبيه.

لا يتذكر بانه رآه في شارع لاس ينتاناس. ويظن بانه كان يأتي للنوم هناك في مرحلة ما، في بداية حبه لترانسيتو اريثا، لكنه لم يعد إلى زيارتها بعد ولادته. لقد كانت وثيقة العماد لسنوات طويلة خلت هي وسيلتنا الوحيدة لتحديد الهوية، ووثيقة تعميد فلورينتينو اريثا، المثبتة في خورانية سانتو توريبيو، كانت تقول فقط انه ابن طبيعي لابنة طبيعية عازبة اخرى تدعى ترانسيتو اريثا. ولم يكن يظهر في الوثيقة اسم الأب، الذي واظب رغم ذلك على تأمين حاجات ابنه الضرورية سراً حتى اليوم الاخير في حياته. وقد أقفل هذا الوضع الاجتماعي أبواب مدرسة الاكليروس في وجه فلورنتينو اريثا، ولكنه نجا في الوقت ذاته من الخدمة العسكرية في الحقبة الاكثر دموية من حروبنا الاهلية، لكونه ابناً وحيداً لعزباء.

كان يجلس كل يوم جمعة، بعد العودة من المدرسة، أمام مكاتب شركة الكاريبي للملاحة النهرية، متصفحاً كتاباً يضم صور حيوانات يكاد يتمزق نتفاً لكثرة ما تصفحه. كان الاب يدخل دون ان ينظر اليه، مرتدياً السترة الكتانية التي كان على ترانسيتو اريثا ان تقيفها فيما بعد على مقاسه، وبوجه يشبه وجه سان خوان الانجليكي الذي يوضع فوق المذابح. وعند خروجه، بعد عدة ساعات، كان يعطيه نقوداً تغطي حاجاته لاسبوع، محاذراً ألا يراه أحد

حتى ولا حوذي عربته. ما كان يكلمه، ليس لان الأب لم يحاول ذلك فقط، بل لانه كان يرهبه أيضاً. وفي أحد الايام، وبعد ان انتظر وقتاً أطول مما اعتاد عليه، اعطاه الأب النقود قائلاً له:

ـ خذ ولا تعد هنا بعد اليوم.

كانت تلك هي آخر مرة يراه فيها. لكنه سيعلم بعد حين ان العم ليون الثاني عشر، الذي كان أصغر من أبيه بعشر سنوات، سيواصل حمل النقود إلى ترانسيتو اريثا، كما سيتولى شؤونها بعد موت بيو الخامس اثر مغص لم يعالج جيداً، دون ان يترك اثراً مدوناً، ودون ان يتاح له الوقت لاتخاذ أية تدابير لصالح ابنه الوحيد: ابن الشارع.

كانت مأساة فلورينتينو اريثا اثناء عمله كاتباً لشركة الكاريبي للملاحة النهرية، تكمن في انه لم يستطع تفادي غنائيته لانه لم يكن قادراً على عدم التفكير بفيرمينا داثا، ولم يتعلم ان يكتب أبداً دون التفكير بها. وفيما بعد، حين نقلوه لاداء أعمال اخرى، كانت دواخله تفيض حباً لا يدري ما يفعل به، فراح يهديه إلى العاشقين الذين لا يتقنون الكتابة بكتابة رسائل حب مجانية لهم في زقاق الكتبة العموميين، حيث كان يذهب بعد انتهائه من العمل. كان ينزع سترته بحركاته الوقورة ويعلقها على مسند الكرسي، ثم يضع الأكمام المستعارة كي لا يلوث قميصه، ويحل ازرار الصدرية ليفكر بشكل أفضل، ويبقى أحياناً حتى ساعة متأخرة من الليل، باعثاً الأمل في البائسين برسائل حب تبعث على الجنون. وبين حين وآخر كان يجد امرأة فقيرة تعاني مشكلة مع ابنها، أو محارباً قديماً يلح في طلب دفع تعويضاته، أو أحداً سُرق منه شيء ويريد الشكوى أمام الحكومة، ولكنه كان عاجزاً عن تلبية رغباتهم مهما بذل من جهد، لانه لم يكن قادراً على اقناع أحد إلا في رسائل الحب. لم يكن يسأل زبائنه الجدد أي سؤال، إذ كان يكتفي برؤية بياض عيونهم ليعرف حالتهم، فيملأ ورقة بعد ورقة بكلمات حب خارقة، وذلك بمعادلة مضمونة النتائج هي الكتابة مفكراً بفيرمينا داثا، ولا شيء سواها. ومع انتهاء الشهر الأول أصبح عليه ان يضع نظام حجز مسبق، حتى لا تجعله اشواق العاشقين يفيض متجاوزاً الحدود.

ان أجل ذكرياته عن تلك الحقبة هي ذكرى صبية خجول، تكاد تكون طفلة، طلبت منه وهي ترتعش ان يكتب لها رداً على رسالة ملحة تلقتها لتوها، وعرف فلورينتينو اريثا بانه كان قد كتبها في مساء اليوم السابق. رد عليها باسلوب مختلف، بما يتناسب مع انفعالات الصبية وسنها، وبخط يبدو كذلك وكأنه خطها، اذ كان يحسن اصطناع خطوط لكل مناسبة حسب طبيعة كل شخص. كتبها متصوراً ما كانت سترد به عليه فيرمينا داثا لو كانت تحبه كثيراً كما تحب تلك المخلوقة المرتعدة عاشقها. وبعد يومين، طبعاً، كان عليه ان يكتب كذلك رد

الحبيب بالخط والاسلوب ونوع الحب الذي خصه به في الرسالة الأولى، وهكذا وجد نفسه متورطاً في مراسلة محمومة مع نفسه. وقبل انقضاء شهر، جاءه كلّ على انفراد ليشكراه لما كان قد اقترحه في رسالة الشاب ووافق عليه باخلاص في رد الفتاة: انهما سيتزوجان.

وحين انجبا ولدهما الاول فقط، واثناء حديث عرضي، انتبها إلى ان رسائلهما قد كتبها الكاتب العمومي نفسه، فذهبا لأول مرة معاً إلى الزقاق لتسميته عراباً لابنهما. ولقد تحمس فلورينتينو اريثا لتجلي احلامه العملي، فأفرغ وقتاً حين لم يكن لديه متسع من الوقت ليؤلف كتاب سكرتير العاشقين وهو أشمل واكثر شاعرية من الكتب المماثلة التي كانت تباع بعشرين سنتافو حتى ذلك الحين في الازقة، والتي كان نصف أهل المدينة يحفظونها عن ظهر قلب. لقد تخيل ورتب الحالات التي قد يجد نفسه فيها، هو وفيرمينا داثا، وكتب لكل حالة عدة نماذج تغطي جميع الاحتمالات التي بدت له ممكنة واجتمع لديه في نهاية المطاف حوالي ألف رسالة في ثلاثة اجزاء مجلدة كتجليد معجم كوفاروبياس، انما لم يغامر أي ناشر في المدينة بطباعتها، فانتهت إلى احد اماكن المهملات في البيت، مع أوراق اخرى من الماضي، لان ترانسيتو اريثا رفضت باصرار استخراج خوابيها المطمورة وتبديد مدخرات حياتها في حماقة نشر. وبعد عدة سنوات، حين أصبح لدى فلورينتينو اريثا الموارد اللازمة لنشر الكتاب، تكلف مشقة للاقتناع بان رسائل الحب أصبحت موضة قديمة.

فيما هو يخطو خطواته الاولى في شركة الكاريبي للملاحة النهرية ويكتب رسائل حب مجانية في زقاق الكتبة العموميين، كان اصدقاء صبا فلورينتينو اريثا يوقنون بانهم يخسرونه شيئاً فشيئاً وبلا عودة. وهكذا كان. فبعد عودته من الرحلة النهرية كان ما يزال يلتقي ببعضهم على أمل التخفيف من ذكرى فيرمينا داثا، فلعب معهم البليارد، وذهب الى حفلات رقصه الاخيرة، واهتم بان يكون محط اعجاب الفتيات، وفعل كل ما بدا له مناسبا ليعود كما كان. وفيما بعد، عندما اعتمده العم ليون الثاني عشر موظفاً، صار يلعب الدومينو في النادي التجاري مع زملائه في العمل، وبدأ هؤلاء يعترفون به كواحد منهم حين لم يعد يحدثهم الا عن شركة الملاحة، والتي ما عاد يذكر اسمها كاملا، بل يكتفي للاشارة اليها بالحروف الاولى: ش. ك. م. ن. وغير حتى طريقته في الاكل. فبعد ان كان لا مباليا ومضطربا على المائدة، أصبح منتظما ومتقشفا حتى اخر أيامه: فنجان قهوة كبير كفطور، وقطعة سمك مسلوق مع الارز الابيض للغداء، وفنجان قهوة بالحليب مع قطعة جبن قبل النوم. وصار يشرب قهوة مرة في كل وقت، وفي أي مكان وتحت اية ظروف، بكميات تصل الى ثلاثين فنجانا في اليوم: كانت قهوة أشبه بالبترول الخام يفضل تحضيرها بنفسه، ويضعها دائما في ترمس بمتناول يده. لقد أصبح شخصا آخر، رغم قراره الثابت وجهده المضني لمتابعة حياته كما كان قبل عشرة

الحب القاتلة.

الحقيقة انه لن يعود ابدا كما كان. فاستعادة فيرمينا داثا كان هدف حياته الوحيد، وكان متأكدا من انه سيصل اليه عاجلا ام آجلا، حتى انه اقتنع ترانسيتو اريثا بمتابعة اعداد البيت ليكون مناسبا لاستقبالها في اية لحظة تحدث فيها المعجزة. وعلى العكس من ردة فعلها حيال نشر سكرتير العاشقين، مضت ترانسيتو اريثا بعيدا جدا في هذا الامر: اشترت البيت نقدا، وبدأت عملية اصلاح شاملة. أقاما صالة استقبال حيث كانت حجرة النوم، أقاما في الطابق العلوي مخدعا للزوجين واخر للأولاد الذين سينجبونهما، كلاهما فسيح وحسن الاضاءة، ومكان مشغل السيجار القديم أقاما حديقة فسيحة فيها جميع انواع الزهور، كرس لها فلورينتو اريثا شخصيا فترة بطالته الصباحية. والشيء الوحيد الذي بقي على حاله كلمتان للماضي، هو دكان الخردوات. اما القسم الخلفي من الدكان، حيث كان ينام فلورينتينو اريثا، فتركاه كما كان دوما، بأرجوحة النوم المعلقة وطاولة الكتابة الصغيرة المغطاة بكتب متراكمة بفوضى، بينما انتقل هو الى الحجرة المقررة كمخدع زوجي في الطابق العلوي. وكانت هذه الغرفة هي أوسع حجرات البيت واكثرها برودة، لها شرفة داخلية من الممتع البقاء فيها ليلا لاستنشاق نسيم البحر ورائحة الورود، لكنها كانت كذلك الحجرة التي تستجيب اكثر من سواها لرهبنة فلورينتينو اريثا الصارمة. كانت جدرانها ملساء وخاوية، مطلية بالكلس، وليس فيها من الأثاث سوى سرير سجن ضيق، وكوميدينو عليه شمعة مثبتة فوق فتحة قنينة، وخزانة ملابس قديمة وابريق لغسل الايدي مع صحنه وطشت لسكب ماء الغسل.

استمر العمل في البيت حوالي ثلاث سنوات، وقد توافق مع مرحلة استقرار مؤقت مرت بها المدينة، نتيجة ازدهار الملاحة النهرية والتجارة العابرة، وهي نفس العوامل التي كانت سبب عظمتها أثناء الحكم الاستعماري وحولتها خلال اكثر من قرنين الى بوابة اميركا. ولكن هذه المرحلة كانت كذلك في الفترة التي بدا فيها على ترانسيتو اريثا أول أعراض مرضها الذي لا شفاء منه. أصبحت زبوناتها الدائمات يأتينها الى دكان الخردوات وهن اكثر هرما في كل مرة، واكثر شحوبا واكثر انحدارا، ولم تكن تتعرف عليهن بعد معاملة معهن استمرت نصف حياة، أو انها كانت تخلط شؤون بعضهن بشؤون اخريات. وكان هذا شيئا خطيرا في تجارة كتجارتها، لا مكان فيها لأوراق موقعة ووثائق كاحتياط لحماية الشرف، شرفها وشرف الاخرين، وكانت كلمة الشرف تعطى وتقبل كضمانة كافية. بدت أول الامر وكأنها آخذة بالصمم، ولكن سرعان ما تبين إن ذاكرتها هي التي تتسرب من الثقوب، وهكذا صفت تجارة الرهونات، واصلحت البيت بكنز الخوابي المخبأة واثثته، ثم بقي لديها بعد ذلك كثير من المجوهرات القديمة المشهورة في المدينة، والتي لم تتوفر لاصحابها الموارد اللازمة لاستردادها.

عندئذ أصبح على فلورينتينو اريثا ان يتحمل في الوقت ذاته مسؤولية التزامات عديدة، لكن حماسه لم يضعف لزيادة أعماله كصياد خفي. فبعد تجربته غير المنتظمة مع ارملة ناثاريت، التي شقت له طريق غراميات الازقة، تابع اصطياد عصفورات الليل اليتيمات لعدة سنوات، بحثا عن مهدىء من الام فيرمينا داثا. لكنه لم يعد قادراً فيما بعد على معرفة ان كانت عادته في الزنى دون آمال هي ضرورة للضمير أم مجرد ادمان للجسد. صار تردده على فندق العابرين أقل، ليس لان اهتماماته كانت في جهة اخرى وحسب، بل لأنه لم يكن يرغب بان يروه في مسيرة مختلفة جدا عن الصورة المألوفة التي عرفوها بها. ومع ذلك، فقد لجأ في ثلاث مناسبات مستعجلة الى الوسيلة السهلة لفترة لم يعشها: كان يجعل صديقاته المتخوفات من انكشاف امرهن يتنكرن بزي الرجال، ويدخل معهن الى الفندق بخيلاء سكارى متأخرين في السهر. لكنه لم يعدم من يلاحظ انه في مناسبتين على الاقل لم يكن يذهب مع صديقه المزيف الى الحانة وانما الى الحجرة، فتعرضت بذلك سمعته التي كانت قد تهشمت الى الضربة القاضية. الى ان توقف اخيرا عن الذهاب الى هناك. وفي المرات القليلة التي ذهب فيها، لم يفعل ذلك للحاق ما فاته، وانما على العكس تماما: كان يبحث عن ملجأ ليستعيد انفاسه بعد الافراط.

وكان ذلك ضروريا. فهو يغادر المكتب في الخامسة مساء، ويمضي عندئذ متنقلا كباشق جوال. كان يكتفي في البدء بما يمده به الليل. فيصطاد خادمات في الحدائق، وزنجيات في السوق، ومتأنقات في الشواطيء، واميركيات شماليات في سفن نيواورليانز. فيأخذهن الى ملطم الامواج حيث نصف اهل المدينة يفعلون الشيء نفسه منذ غروب الشمس، يأخذهن حيث يستطيع، واحيانا الى حيث لا يستطيع، اذ لم تكن قليلة المرات التي اضطر فيها الى حشر نفسه بسرعة في مدخل مظلم لأحد البيوت وعمل ما يستطيعه كيفما اتفق وراء البوابة.

كان برج الفنار ملجأ محظوظا يذكره بحنين بعد ان حلت جميع اموره وهو على اعتاب الشيخوخة، لانه كان مكانا جيدا للسعادة، وخصوصا في الليل، حيث كان يرى ان شيئا من غرامياته يصل الى المبحرين في السفن مع كل لفة من وميض الفنار. وقد تابع الذهاب الى هناك، اكثر من ذهابه الى اي مكان اخر، فيما صديقه عامل الفنار يستقبله سعيداً، بوجه أحمق كان أفضل دليل على الكتمان بالنسبة للعصفورات المرتعدات. كان هناك بيت في أسفل الفنار، حيث تزمجر الامواج وهي تتحطم على الصخور، وحيث البحر اكثر زخما لان فيه شيئا من الاخفاق: لكن فلورينتينو اريثا كان يفضل برج النور بعد ساعات الليل الاولى، لانه يرى المدينة كلها واضواء زوارق الصيادين في البحر، وكذلك في المستنقعات النائية.

ومن هذه الحقبة اتت نظرياته الاقرب الى التبسيط حول العلاقة بين التكوين الجسدي

للنساء وكفاءتهن للحب. لم يكن ليثق بالصنف الحسي من النساء. اولئك اللواتي يبدون قادرات على التهام تمساح نيء. ويكن عادة الاكثر سلبية في الفراش، نموذجه المفضل كان النقيض: تلك الضفادع الضامرة التي لا يتكلف أحد عناء النظر اليهن ثانية في الشارع، اللواتي يبدون وكأنهن لا شيء بعد نزع ملابسهن، ويثرن الشفقة بطقطقة عظامهن عند الصدمة الاولى، ولكنهن رغم ذلك قادرات على جعل اعتى المتغنين بفحولتهم لقمة سائغة لصندوق القمامة. وكان قد سجل رؤوس أقلام عن ملاحظاته المبكرة هذه بنية تأليف ملحق عملي لكتاب سكرتير العاشقين، لكن المشروع لقي مصير سابقه بعد ان قلبته اوسيثيا سانتانديرظهرا وباطنا بحنكتها التي كحنكة كلب عجوز... أوقفته على رأسه، رفعته وانزلته، واعادت ولادته كمخلوق جديد، وجعلته يمزق مهارته النظرية ارباً ارباً وعلمته الشيء الوحيد الذي عليه ان يتعلمه عن الحب، هو ان أحداً لا يستطيع تعليم الاخرين الحياة.

كانت اوسيثيا سانتنديرقد تزوجت زواجا عاديا دام عشرين سنة، وبقي لها من ذلك الزواج ثلاثة ابناء تزوجوا بدورهم وانجبوا ابناء، بحيث انها كانت تفاخر بانها الجدة صاحبة أفضل فراش في المدينة. ولم يتضح أبداً ان كانت هي التي هجرت زوجها، أم انه هو الذي هجرها، أم انهما هجرا بعضهما في الوقت ذاته حين ذهب هو ليعيش مع عشيقته الدائمة، وشعرت هي بأنها تحررت لتستقبل في وضح النهار، ومن الباب الرئيسي، روسندودي لا روسا، ربان السفينة النهرية، الذي كانت قد استقبلته ليلا مرات كثيرة من الباب الخلفي، وكان هو نفسه، ودون ان يفكر مرتين، من أخذ فلورينتينو اريثا اليها.

دعاه للغذاء عندها. وحمل معه دمجانة خمر بيتي قوي وأفخر نوعية من المواد لاعداد وجبة ملحمية لا يمكن تحضيرها الا بدجاج بيتي، ولحم طري العظام، وخنزير معلوف على المزبلة وبقول وخضروات قرى النهر. ومع ذلك، لم يبد فلورينتنو اريثا منذ البدء اهتماما بلذائذ المطبخ، ولا بكرم سيدة البيت، كاهتمامه بجمال البيت. لقد اعجبه البيت بحد ذاته، بانارته وبرودته، بنوافذه الاربع المطلة على البحر، واطلالته من الخلف على مشهد كامل للمدينة القديمة. اعجبته كمية ورونق الاشياء التي كانت تمنح الصالة مظهراً مشوشا وصارما في الوقت نفسه، والتي كانت تضم جميع انواع المهارات الحرفية التي يجلبها القبطان روسيندودي لاروسا في كل رحلة من رحلاته، حتى لم يبق مكان لمزيد. وعلى الشرفة المطلة على البحر، فوق منصة خاصة، كانت تقف ببغاء مالاسيه يغطيها ريش ناصع، بياضه لا يُصدق، وتطرق بسكينة تأملية تبعث كثيرا على التأمل: انها أجمل حيوان رآه فلورينتينو اريثا على الاطلاق.

تحمس القبطان روسيندودي لا روسا لحماسة الضيف، فروى له بالتفصيل قصة كل شيء من الاشياء. وفيما هو يفعل، كان يشرب الخمر بجرعات قصيرة انما دون فاصل بين جرعة واخرى. كان يبدو وكأنه مبني من الاسمنت المسلح: ضخم، كثيف الشعر في كل انحاء جسده باستثناء رأسه، له شارب كفرشاة نقاش، وصوت رحوي لا يمكن الا ان يكون كذلك، وصاحب نخوة ممتعة، ولكن ليس هناك من جسد قادر على احتمال طريقته في الشرب. وقبل الجلوس الى المائدة كان قد انهى نصف الدمجانة، وهوى على وجهه فوق الكؤوس والزجاجات بجلبة انهدام بطيئة. وكان على اوسيثيا سانتاندير ان تطلب مساعدة فلورينتينو اريثا لسحب الجسد الخامد كجسد حوت مرتطم بالبر ونقله الى السرير، ونزع ملابسه وهو نائم. بعد ذلك، وفي ومضة الهام شكرها كلاهما لاقتران برجيهما، تعريا معا في الحجرة المجاورة دون اتفاق فيما بينهما، بل ودون ايحاء بذلك، ودون اعداد له. وتابعا التعري بعدها كلما سنحت لهما الفرصة خلال اكثر من سبع سنوات، اثناء غياب القبطان في رحلاته. لم تكن ثمة مخاطرة بان يفاجئهم، اذ كان يتمتع بعادة بحار طيب، فهو يطلق صافرة سفينته مخبرا بقدومه، حتى ولو وصل فجراً، كان يطلق ثلاث صافرات حادة وطويلة لزوجته واولاده التسعة، ثم صافرتين متقطعتين وكئيبتين لعشيقته.

كان لاوسيثا سانتاندير حوالي خمسين سنة من العمر، وكان ذلك باديا عليها، ولكنها كانت تتمتع بغريزة خاصة جدا في الحب، ليس بوسع النظريات العملية او العلمية ان تشوشها. وكان فلورينتينو اريثا يعرف من دليل رحلات السفن متى يستطيع زيارتها، وكان يذهب اليها دوماً دون اعلان مسبق ساعة يشاء، سواء في النهار او الليل، ولم يحدث مرة واحدة ان لم تكن في انتظاره. كانت تفتح له الباب كما ربتها امها حتى السابعة من عمرها: عارية تماماً، لكنها تضع على رأسها عصابة نايلون. لم تكن تسمح له بالتقدم خطوة واحدة قبل ان تنزع عنه ملابسه، لانها تعتقد ان وجود رجل بملابسه في البيت هو نذير شؤم. وكان هذا سببا لنزاع دائم مع القبطان روسيندودي لا روسا، لانه كان يؤمن بخرافة ان التدخين عاريا هو امر وخيم العواقب، كما انه يفضل أحيانا تأجيل الحب على ان يطفيء سيجاره الكوبي الاصيل. اما فلورينتينو اريثا، فكان محبا جدا لمفاتن التعري، فكانت تخلع عنه ملابسه بلذة فور اغلاقها الباب، دون ان تتيح له الفرصة لتحيتها، ولا لنزع قبعته ونظارته، مقبلة اياه ومتلقية القبل المبعثرة، وحالة ازراره من أسفل الى اعلى، بادءة بأزرار فتحة السروال، واحدا بعد كل قبلة، ثم ابزيم الحزام، واخيرا ازرار الصديرية والقميص، الى ان تتركه كسمكة حية مشقوقة البطن. ثم تجلسه في الصالة وتنزع حذائه، وتشد بنطاله من عند الفخذ لتنزعه دفعة واحدة مع السروال الداخلي الطويل وتنزله الى الكاحلين، واخيرا تفك اربطة واقية

الساق المطاطية وتنزع جوربيه، عندئذ يتوقف فلورينتينو اريثا عن تقبليها وعن السماح لها بتقبيله، ليفعل الشيء الوحيد الذي يقوم به في تلك الطقوس الدقيقة: فك الساعة السلسلة من عروة الصدرية ونزع النظارة ووضعهما معا في حذائه ليتأكد من انه لن ينساهما. لقد ثابر دوماً على اتخاذ هذا الاحتياط، دائما دون نسيان، كلما تعرى في بيت غريب.

ما ان ينتهي من عمل ذلك حتى تهاجمه دون ان تتيح له الوقت لأي شيء، على الكنبة التي انتهت من تعريته عليها. وفي أحيان قليلة على السرير. كانت تحشره تحتها، وتسيطر عليه كله لها كلها، محتوسة في ذاتها، مقدرة الابعاد بعينيها المغمضتين في ظلمتها الداخلية المطبقة، متقدمة من هنا، متراجعة، ضابطة اتجاهها اللامرئي، محاولة عبر سبيل آخر أكثر زخما، طريقة اخرى للمشي دون غرق في مستنقع اللزوجة الذي يطفو من بطنها، سائلة ومجيبة بنفسها بأزيز ذبابة في رطانتها الخلفية أين هو في الظلام هذا الشيء الذي تعرفه هي وحدها وتريده لها وحدها فقط، الى ان تخر دون انتظار أحد، وتهوي وحدها في هوتها بانفجار نصر شامل يجعل العالم كله يرتعش. ويبقى فلورينتينو اريثا منهكا، ناقصا، طافيا في بركة عرقهما، يسيطر عليه انطباع بانه ليس سوى اداة للذة. كان يقول لها «انك تعاملينني كما لو كنت واحدا زائدا» فتطلق ضحكة انثى حرة وتقول: «بل كانك واحد أقل». ويبقى على قناعة بانها تستولي على كل شيء بشراهة وبخل، فتقلب الكبرياء مزاجه ويخرج من البيت مقررا عدم الرجوع. لكنه ما يلبث ان يستيقظ ناسيا، مع صحوة الوحدة الرهيبة وسط الليل، وتنكشف له ذكرى حب اوسيثا سانتانديرالشارد على حقيقته: مصيدة سعادة يملها الوقت ذاته، انها يستحيل عليه الفرار منها.

وفي يوم أحد، بعد سنتين من تعارفهما، كان أول ما فعلته عند وصوله، بدلا من تعريته، ان نزعت نظارتيه لتقبله بشكل أفضل، وهكذا علم فلورينتينو اريثا انها بدأت تحبه. ورغم لأول مرة بانه على أحسن حال منذ دخوله ذلك البيت الذي صار يحبه كبيته، فانه لم يبق فيه من قبل اكثر من ساعتين متواصلتين، ولم يبق للنوم فيه أبدا، بينما بقي مرة واحدة لتناول الطعام، لانها كانت قد وجهت اليه دعوة رسمية. والحقيقة انه لم يكن يذهب هناك الا لما كان يذهب من اجله، حاملا معه دوما هديته الوحيدة التي هي وردة منفردة، ثم يختفي الى ان تحين الفرصة التالية المعلومة لديه. أما في يوم الاحد الذي نزعت فيه نظارتيه، وبسبب هذه الحركة من جهة، ولانهما استسلما للنوم بعد حب مريح من جهة اخرى، أمضيا المساء كله عاريين في سرير القبطان الفسيح. وبعد الاستيقاظ من القيلولة، كان فلورينتينو اريثا ما يزال يحتفظ فى ذاكراته بصرخات الببغاوات، التي كان صريفها النحاسي يتناقض مع جمال الحيوان. لكن الصمت كان صافيا فى قيظ الساعة الرابعة، ومن نافذة غرفة النوم كان يظهر

جانب من المدينة القديمة مع شمس الاصيل التي تلهب ظهرها، وقبابها المذهبة، وبحرها الملتهب حتى جامايكا. مدت اوسيثيا سانتانديريدها المغامرة باحثة باللمس عن الحيوان الراقد، لكن فلورينتينو اريثا ازاحها قائلا: «الآن لا... أحس شيئا غريبا، وكأن هناك من يرانا».

عادت تهيج الببغاء بضحكتها اللعوب. وقالت: «هذه حجة لاتنطلي حتى على امرأة ولم تكن لتنطلي عليها كذلك، لكنها قبلت بها كحجة جيدة، وأحبا بعضهما بصمت لوقت طويل دون ان يبغيا ممارسة الحب. وفي الساعة الخامسة، حين كانت الشمس ما تزال مرتفعة، قفزت هي من السرير، عارية تماما وبعصابة النايلون على رأسها، ومضت تبحث عن شيء يشربانه في المطبخ. لكنها لم تكن قد خطت خطوة واحدة خارج حجرة النوم عندما أطلقت صرخة مرعبة.

ما كانت قادرة على التصديق. كانت المصابيح المعلقة هي الشيء الوحيد المتبقي في البيت. أما ما عداها، الاثاث المحفور، والسجاد الهندي، والتماثيل والتحف وتزهات الزجاج والمعادن الثمينة التي لاتحصى لها، وكل ما كان يجعل من بيتها أحد ألطف البيوت واكثرها زينة في المدينة، كل شيء، حتى الببغاء المقدسة، كله قد تبخر. لقد حملوه من الشرفة المطلة على البحر دون ازعاج الحب. لم يبق سوى الصالون المقفر بنوافذه الاربع المفتوحة، وكتابة بفرشاة نقاش على الجدار المقابل تقول: هذا ما يحدث لمن يتشغلون. ولم يستطع القبطان روسيندو دي لاروسا ان يفهم أبدا سبب امتناع اوسيثيا التبليغ عن السرقة، أو عدم محاولتها الاتصال بتجار المسروقات، وعدم سماحها بالعودة للحديث عن نكبتها.

تابع فلورينتينو اريثا زيارتها في البيت المنهوب، الذي اقتصر اثاثه على ثلاث كراس جلدية بلا مسند نسيها اللصوص في المطبخ، وحجرة النوم حيث كانا. لكن زياراته أصبحت أقل من السابق، ليس بسبب كآبة البيت، كما ظنت هي وقالت له ذلك، وانما بسبب حافلة البغال التي انشئت في مطلع القرن الجديد، وكانت بالنسبة له عشا مفعما وأصيلا للعصفورات الطليقات. كان يركب الحافلة أربع مرات في اليوم، مرتين للذهاب الى المكتب ومرتين للعودة الى البيت. وفيما هو يقرأ حقا في بعض الاحيان، اويتظاهر بالقراءة في معظم الاحيان، يتمكن من اقامة أول الاتصالات من أجل موعد لاحق. وحين وضع العم ليون الثاني عشر تحت تصرفه فيما بعد، عربة تجرها بغلتان بنيتان، ذهبيتا السروج، كبغلتي الرئيس رافائيل نونيث، أصبح يحن الى ايام الحافلة، كأكثر الأيام ازدهارا في سيرته كصقر متصيد.

ولقد كان محقاً : فليس من عدو للغراميات السرية أسوأ من عربة خاصة تنتظر أمام الباب. لدرجة انه كان يترك العربة مخبأة في بيته ويمضي مشيا على الاقدام في جولاته المتغطرسة، حتى لا يترك ولو مجرد اثار العجلات على التراب. ولهذا، كثيرا ما كان يذكر بحنين الحافلة القديمة ذات البغال الضامرة، المتوفة الوبر، حيث كان يكفيه القاء نظرة سريعة بداخلها ليعرف أين هو الحب. ومع ذلك، فانه لم يستطع، وسط كل هذه الذكريات المثيرة، ان ينسى ذكرى عصفورة مهجورة لم يعرف اسمها، ولم يكد يمضي معها سوى نصف ليلة مجنونة، كانت كافية لتملأ فوضى الكرنفال البريئة بالمرارة فيما تبقى من حياته.

كانت قد لفتت انتباهه في الحافلة لمضيها وسط صخب الاحتفال العام بلامبالاة. لا بد انها كانت دون العشرين من العمر، ولم يكن يبدو عليها الحماس للكرنفال، اللهم الا اذا كانت متنكرة بهيئة اللامبالاة: كان شعرها فاتحا، طويلا وناعما، مفلتا على سجيته فوق كتفيها، وكانت تلبس عباءة من قماش عادي بلا أية زينة. ولم تكن تعبأ أبداً بصخب الموسيقى في الشوارع، ولا بحفنات الرز، ولا بوابل عطر انيلين الذي يرشونه على الركاب لدى مرور الحافلة، التي كانت بغالها بيضاء مطلية بالنشاء وعلى رؤوسها قبعات من الزهور هي زينتها خلال ايام الجنون الثلاثة تلك. انتهز فلورينتينو اريثا حالة الفوضى السائدة ودعاها لتناول البوظة، لانه لم يكن يعتقد بانها ستستجيب لشيء اخر. فنظرت اليه دون ان تُباغت وقالت: «أوافق بكل سرور، لكنني أحذرك من انني مجنونة». ضحك لهذا الخاطر، ورافقها لمشاهدة استعراض العربات المزينة من شرفة محل البوظة. بعد ذلك وضع طرطوراً مستأجرا، واندسا معا وسط حلقة الرقص في ساحة الجمارك، واستمتعا معاً وكأنهما عروسين ولدا لتوهما، اذ ان لامبالاتها وصلت الى اقصاها النقيض مع صخب الليل. كانت ترقص كمحترفة، وكانت واسعة المخيلة وجريئة للاحتفال، وذات سحر ماحق. وكانت تضحك ضحكة مجلجلة في حمى الكرنفال وتقول له:

- انت لا تعرف الورطة التي اوقعت بها نفسك معي. أنا مجنونة من مشفى المجاذيب.

لقد كانت تلك الليلة بالنسبة لفلورينتينو اريثا بمثابة عودة الى مبالغات المراهقة الساذجة، حين لم يكن قد ابتلى بالحب بعد. لكنه كان يدرك بحسه المعذب، اكثر من ادراكه بفعل التجربة، ان سعادة بهذه السهولة لا يمكن لها ان تدوم طويلا. وهكذا فانه اقترح على الصبية، كما هي العادة دائما بعد توزيع الجوائز على أفضل المتنكرين، ان يذهبا لمشاهدة الفجر من الفنار. وافقت شاكرة، على ان يكون ذلك بعد الانتهاء من توزيع الجوائز.

لقد بقي لفلورينتينو اريثا الايمان بان ذلك التأخير قد انقذ حياته. وفعلا، كانت الفتاة قد اشارت عليه بان ينطلقا الى الفنار، حين هجم حارسان وممرضة من مشفى الراعية الالهية

للامراض العقلية وانقضوا بانفسهم عليها. كانوا يبحثون عنها منذ هروبها، في الثالثة بعد الظهر، ليس هم وحدهم، وانما القوة العامة بأسرها. كانت قد قطعت رأس أحد الحراس وجرحت اثنين اخرين بجراح بليغة بمنجل انتزعته من الجنائني، لانها أرادت الخروج للرقص في الكرنفال. ولكن لم يخطر ببال أحد انها ترقص في الشارع، وانما ظنوا بانها مختبئة في أحد البيوت الكثيرة التي فتشوا كل شيء فيها بما في ذلك الصهاريج.

لم يكن من السهل حملها. فقد دافعت عن نفسها بمقص كانت تخبئه في صدريتها، وقد احتاجوا لستة رجال لالباسها قميص الشيت، فيما الحشد المجتمع في ساحة الجمارك يصفق ويصفر بمرح، معتقدا ان عملية الاعتقال الدامية هي واحدة من مشاهد الكرنفال التهريجية الكثيرة. تأثر فلورينتينو اريثا جداً، وأخذ يتردد منذ أربعاء الرماد على شارع الراعية الالهية حاملا لها علبة شوكولاته انكليزية. وكان يراقب السجينات اللواتي يطلقن عليه جميع انواع الشتائم والمغازلات من خلال النوافذ، فيثيرهن بعلبة الشوكولاته، عل الحظ يحالفه وتطل هي أيضا من بين القضبان المعدنية. لكنه لم يرها أبدا. وبعد عدة شهور، وفيما هو ينزل من حافلة البغال، طلبت طفلة كانت تسير مع ابيها قطعة شوكولاته من العلبة التي يحملها بيده. أنبها ابوها وطلب منها ان تعتذر لفلورينتينو اريثا. لكن هذا أهدى العلبة كلها للطفلة مفكراً بان تلك اللفتة قد تنجيه من المرارة، وهدأ من روع الأب بان ربت على كتفه قائلا:

- كنت قد احضرتها لحب ذهب مع الشيطان.

وكتعويض من القدر، تعرف فلورينتينو اريثا في حافلة البغال أيضا على ليونا كاسياني، التي كانت امرأة حياته الحقيقية، رغم انهما، هو وهي، لم يعلما ذلك أبدا، ولم يمارسا الحب مطلقا. كان قد أحس بها قبل ان يراها اثناء عودته الى البيت في حافلة الساعة الخامسة: كانت نظرة مادية قد لامسته وكأنها أصبع. رفع بصره ورآها في الطرف المقابل، محددة تماما بين الركاب الاخرين. ولم ترفع نظرها عنه. بل على العكس: بقيت تنظر اليه بوقاحة لم تمكنه من الظن بشيء آخر سوى ما ظنه: زنجية، شابة وجميلة، لكنها عاهرة دون شك. أزاحها من حياته، لأنه ما كان يتصور شيئا ابشع من دفع ثمن الحب: وهذا ما لم يفعله أبداً.

نزل فلورينتينو اريثا في ساحة العربات، وهي المحطة الاخيرة للحافلة، وانسل بأقصى سرعة عبر متاهة المتاجر لان أمه تنتظره في الساعة السادسة، وعندما خرج من الجانب الاخر للحشد سمع وقع كعب نسائي مرح على بلاط الرصيف، فعاد ينظر ليتأكد مما كان يعرفه: انها هي. كانت ترتدي ملابس كملابس العبيد التي في الصور، مع تنورة ذات كشاكش واسعة ترفعها بحركة راقصة لتمر فوق برك الماء المتجمعة في الشوارع، وفتحة عنق تكشف عن كتفيها، وعقد ملون يلتف حول عنقها عدة لفات وعمامة بيضاء. انه يعرف هذا النوع من

النساء في فندق العابرين. وكثيراً ما يحدث لاحداهن ان تبقى بلا فطور حتى السادسة مساء، ولا يجدن حينئذ الا وسيلة للحصول على الطعام الا باستخدام الجنس كخنجر قاطع الطريق، فيضعنه على عنق أول من يلتقينه في الشارع: عضوك أو حياتك. وبحثا عن دليل نهائي، بدل فلورينتينو اريثا اتجاهه، ودخل في زقاق الكانديليخو المقفر، فلحقت به مقتربة منه اكثر فأكثر. عندئذ توقف، والتفت اليها، وسد عليها الطريق فوق الرصيف مستندا على المظلة بيديه الاثنتين. ووقفت هي مقابله.

قال لها:

- انك مخطئة يا جميلتي. فأنا لست كذلك.

- بل أنت كذلك. وهو بادٍ في وجهك.

وتذكر فلورينتينو اريثا عبارة كان قد سمعها وهو طفل صغير من طبيب العائلة، عرابه، معلقا على امساكه المزمن: «العالم مقسوم الى من يتغوطون جيدا ومن يتغوطون بشكل سيء». وعلى هذا المبدأ أقام الطبيب نظرية متكاملة حول الخصائص الانسانية التي يعتبرها اكثر دقة من التنجيم. ومع تجارب السنين، طرح فلورينتينو اريثا النظرية بطريقة اخرى: «العالم مقسوم بين الذين يشدون والذين لا يشدون». وكان يرتاب بهؤلاء الاخيرين، لانهم يعتبرون خروجهم عن السكة أمرا خارقا، فيتبجحون بالحب وكأنهم هم الذين اخترعوه لتوهم. أما الذين يمارسونه بكثرة، فانهم يعيشونه فقط. ويشعرون بانهم على أحسن حال، حتى انهم يبدون كأجداث مغلقة، فهم يعلمون ان حياتهم تعتمد على التكتم. لا يتكلمون أبدا عن مآثرهم، ولا يثقون بأحد، ويتظاهرون بالسهو حتى يوصمون بالعجز وبالضعف الجنسي، وبانهم مخنثون رعاديد، كما هو حال فلورينتينو اريثا. لكنهم يساهمون في تعميم هذا الخطأ، لانه يؤمن لهم الحماية. انهم محفل مغلق، يتعارف اعضاؤه على بعضهم في العالم باسره، دون الحاجة الى لغة مشتركة. ومن هنا لم يفاجيء رد الفتاة فلورينتينو اريثا: انها واحدة من جماعته، وبالتالي فهي تعرف بانه يعرف انها تعرف.

كان هذا هو خطأ حياته الذي سيتذكره بوعيه كل ساعة في كل يوم، وحتى آخر يوم. ما كانت تريد طلبه منه ليس الحب، وليس الحب المدفوع الاجر كذلك بالطبع، وانما كانت تريد عملا، أي عمل كان، وكيفما كان وبأي اجر كان، في شركة الكاريبي للملاحة النهرية. أحس فلورينتينو اريثا بخجل عارم لتصرفه معها دفعه لمرافقتها الى مدير التوظيف الذي منحها عملا من الدرجة الدنيا في القسم العام، تولته بكل جدية وتواضع وانكباب خلال ثلاث سنوات:

كانت مكاتب ش. ك. م. ن. تقوم منذ تأسيسها مقابل الميناء النهري الذي لا ينبه

بشيء ميناء عابرات المحيطات في الجانب الاخر من الخليج، ولا مرسى السوق عند شاطيء لاس اينياس. وكانت تلك المكاتب عبارة عن مبنى خشبي سقفه من التوتياء المضلع، وله شرفة طويلة متصلة تستند على دعائم خشبية من الجهة الامامية، وعدة نوافذ ذات شباك معدنية من الجهات الاربع، تبدو منها السفن في الميناء وكانها لوحات معلقة على الجدار. عندما بناه الألمان الأوائل، طلوا توتياء السقف باللون الأحمر والجدران الخشبية باللون الابيض البراق، بحيث كان في المبنى ذاته شيء من السفن النهرية. ثم دهنوه بكامله فيما بعد باللون الازرق، وفي الزمن الذي دخل فيه فلورينتينو اريثا للعمل في الشركة كان المبنى قرميديا معفرا بلا لون محدد، وعلى السقف الصديء كانت توجد رقع من صفائح توتياء جديدة فوق الصفائح الاصلية. ووراء المبنى، في فناء مرصوف ببلاط متآكل ومسيج بشبكة أسلاك كشباك اقنان الدجاج، كانت توجد حانتان كبيرتان حديثتا البناء، وفي نهاية الفناء ثمة انبوب تصريف مغلق، قذر ومنتن، حيث تتعفن فضلات نصف قرن من الملاحة النهرية: حطام سفن تاريخية، بدءا من السفن البدائية ذات المدخنة الوحيدة، التي دشنها سيمون بوليفار، وحتى بعض السفن الحديثة المزودة بمراوح كهربائية في القمرات. وكان معظم تلك السفن مفككاً لاستخدام اجزاء منها في سفن اخرى، ولكن عددا لا بأس به منها كانت في حالة تبدو معها انها لا تحتاج الا لطلائها بوجه من الدهان واطلاقها للابحار، دون إخافة العظائيات او تقطيع الايائك ذات الازهار الكبيرة الصفراء التي تجعلها اكثر تشويقا.

في الطابق الأعلى من البناء كان يقوم القسم الاداري، وذلك في مكاتب صغيرة لكنها مريحة وحسنة التجهيز، كقمرات السفن، اذ انها لم تصمم على يد مهندسين مدنيين وانما مهندسين بحريين. وفي نهاية الممر، كان العم ليون الثاني عشر، كأي موظف آخر، يصرف الاعمال في مكتب كالمكاتب الاخرى كلها، مع فارق وحيد هو انه كان يجد فوق منضدته صباح كل يوم مزهرية زجاجية فيها أي نوع من الزهور ذات الرائحة الذكية. وفي الطابق السفلي كانت شعبة المسافرين، مع صالة انتظار ذات مقاعد خشنة وطاولة لاصدار بطاقات السفر وتسيير الامتعة. واخيرا كان هناك القسم العام، ومجرد تسميته توحي بغموض اختصاصه، حيث تنتهي المشاكل التي تبقى دون حل في بقية أقسام الشركة، لتموت فيه أسوأ ميتة. هناك كانت ليونا كاسياني، منسية وراء طاولة مدرسية صغيرة بين رزم من الاوراق التي لا حل لها، يوم ذهب العم ليون الثاني عشر بنفسه ليرى أية شياطين ستخطر له ليجعل القسم العام نافعا في شيء. وبعد ثلاث ساعات من الاسئلة، والاقتراحات النظرية والاستقصاءات المحددة مع جميع الموظفين في اجتماع موسع، رجع الى مكتبه معذبا ليس بيقين انه لم يجد أي حل لكل هذه المشاكل، بل على العكس تماما: ثمة مشاكل جديدة

ومتنوعة لا حل لها.

وفي اليوم التالي، حين دخل فلورينتينو اريثا الى مكتبه، وجد مذكرة من ليونا كاسياني، مع رجاء بان يدرس المذكرة وان يعرضها على عمه فيما بعد، إن بدت له مناسبة. كانت الوحيدة التي لم تنطق كلمة واحدة خلال جلسة التفتيش في مساء اليوم السابق. فقد حافظت بوعي على مكانتها كموظفة بالشفقة، وذكرت في المذكرة بانها لم تفعل ذلك تهاونا واهمالا وانما احتراما لمسؤولي القسم. وكان حلها على جانب مثير من البساطة. كان العم ليون الثاني عشر قد اقترح اعادة تنظيم جذرية، لكن ليونا كاسياني كانت تفكر في اتجاه معاكس، انطلاقا من البديهية البسيطة بان القسم العلم لا وجود له عمليا: انه مزبلة المشاكل المعلقة وعديمة الجدوى التي ترفعها الاقسام الاخرى عن كواهلها. وبالتالي فان الحل في الغاء القسم العلم، واعادة المشاكل ليتم حلها في اقسامها الاصلية.

لم تكن لدى العم ليون الثاني عشر ادنى فكرة عمن هي ليونا كاسياني، ولم يذكر انه رأى احداً يمكن ان يكونها في اجتماع مساء اليوم السابق، لكنه عندما قرأ المذكرة استدعاها الى مكتبه وتحادث معها على انفراد لمدة ساعتين. تحدثا قليلا في كل موضوع، انسجاما مع منهجه في التعرف على الناس. كانت المذكرة بسيطة وعادية، وقد اعطى الحل النتائج المرجوة فعلا. لكن العم ليون الثاني عشر لم يهتم بهذا: كان مهتما بها. وكان اكثر ما لفت انتباهه ان دراستها الوحيدة بعد المدرسة الابتدائية كانت في مدرسة لصناعة القبعات. كما انها كانت تتعلم الانكليزية في بيتها مستخدمة لذلك منهجاً سريعاً دون معلم، وانها تتلقى منذ حوالي ثلاثة شهور دروساً ليلية لتعلم الضرب على الآلة الكاتبة، وهي مهنة مستجدة ذات مستقبل باهر، كما كان يقال فيما مضى عن التلغراف، وكما قيل من قبل عن الآلات البخارية.

ما ان خرجت من المقابلة حتى كان العم ليون الثاني عشر قد بدأ بمناداتها كما سيناديها دائماً: مثيلتي بالاسم ليونا. كان قد قرر الغاء القسم موضع الخلاف بجرة قلم وتوزيع المشاكل ليجري حلها من قبل مسببيها انفسهم، مثلما اقترحت ليونا كاسياني، كما ابتدع لها منصباً بلا اسم وبلا مهمات محددة، وهو عملياً منصب معاونته الخاصة. وفي مساء هذا اليوم، بعد دفن القسم العام دون تكريم، سأل العم ليون الثاني عشر فلورينتينو اريثا من أين اتى بليونا كاسياني، فأجابه هو بالحقيقة.

فقال له العم ليون:

- عد اذن إلى الحافلة واتني بمن هن مثلها. فبائنتين أو ثلاث من هذا النوع سنعوم مركبك.

فهم فلورينتينو اريثا الأمر كمزحة تقليدية من مُزَح العم ليون الثاني عشر، ولكنه وجد

نفسه في اليوم التالي بدون العربة التي اعطيت له قبل ستة شهور، والتي انتزعوها من الآن ليتابع البحث عن المواهب المخبأة في الحافلات. أما ليونا كسياني فان ترددها الأولي ما لبث ان اختفى، واخرجت من اعماقها كل ما كانت تخفيه بدهاء شديد في السنوات الأولى الثلاث. وبعد ثلاث سنوات أخرى كانت قد أحاطت بكل شؤون المؤسسة، وفي السنوات الاربع التالية وصلت إلى ابواب الامانة العامة، لكنها رفضت الدخول لان درجة واحدة كانت تفصلها عن فلورينتينو اريثا. لقد كانت حتى ذلك الحين تحت امرته، وكانت تريد البقاء كذلك، رغم ان الحقيقة لم تكن كذلك: ففلورينتينو اريثا نفسه لم يكن واعياً إلى انه هو من كان تحت امرتها. فهو لم يفعل شيئاً سوى تنفيذ اقتراحاتها في الادارة العامة لمساعدته في الصمود أمام مكائد اعدائه الخفيين.

كانت ليونا كاسياني تتمتع بمواهب شيطانية في الوصول إلى الاسرار، فهي تعرف دوماً كيف تكون حيث يجب عليها ان تكون وفي الوقت المناسب. كانت ديناميكية، صامتة، وذات عذوبة حكيمة، ولكنها عند الضرورة، وبكل آلام روحها، تفلت الاعنة لطبعها الفولاذي. رغم انها لم تكن تستخدم هذا الطبع لصالحها. اذ كان هدفها الوحيد هو كنس سلم الترقيات بأي ثمن، وبالدم ان لم تكن ثمة وسيلة اخرى، ليصعد عليه فلورينتينو اريثا ويصل إلى حيث أراد الصعود دون ان يحسب مسبقاً قواه الذاتية. كانت قادرة بكل تأكيد على عمل ذلك تلبية لميلها الجامح إلى السلطة، لكنها فعلت ذلك في الحقيقة وهي واعية ان ما تفعله ليس إلا مجرد امتنان. لقد كان قرارها حاسماً، حتى ان فلورينتينو اريثا اختلطت عليه تكتيكاتها، وحاول في لحظة شؤم ان يغلق الطريق امامها معتقداً انها تحاول سد السبيل في وجهه. فوضعته ليونا كاسياني في موضعه الصحيح قائلة له:

- لا تخطىء. أنا مستعدة للتخلي عن كلي هذا عندما تشاء، ولكن فكر بالامر جيداً.

وفلورينتينو اريثا، الذي كان قد فكر فعلاً، أعاد التفكير حينئذ على أحسن وجه استطاعه، وسلمها أسلحته. الحقيقة انه وسط تلك الحروب القذرة في مؤسسة تعاني ازمة دائمة، ووسط كوارثه كصقر صيد لا يهدأ، وحلم فيرمينا داثا الذي أصبح اكثر بعداً عن التحقيق، لم يتوصل فلورينتينو اريثا العصي على التأثر الى لحظة سلام داخلي أمام مرأى تلك الزنجية الباسلة، الملوثة بالبراز والحب في حمى الصراع. حتى انه كان يتألم سراً في أحيان كثيرة لانها لم تكن في الواقع كما ظنها مساء اليوم الذي تعرف فيه عليها، لانه كان سيمسح مؤخرته بمبادئه حينئذ ويمارس الحب معها حتى ولو دفع في سبيل ذلك تبر الذهب اللماع. لكن ليونا كاسياني بقيت كما كانت مساء ذلك اليوم في الحافلة، بملابسها التي كملابس عبدة مشعشة هاربة، وعمائمها المجنونة، وأقراطها واساورها العظمية، ومجموعة عقودها وخواتمها

ذات الفصوص المزيفة في كل اصبع من اصابعها: لبوة شارع. والتبدل الوحيد الذي اضفته عليها السنون كان لصالحها: كانت تبحر في نضوج رائع، وصارت مفاتنها كامرأة أكثر اثارة، وجسدها الافريقي المتقد أخذ يصبح أشد زخماً مع نضجها. لكن فلورينتينو اريثا لم يعد يتنبه اليها مدة عشر سنوات، دافعاً بذلك كفارة خطأه الأول، ولقد ساعدته هي في كل شيء، سوى هذا.

وفي احدى الليالي التي بقي يعمل فيها حتى ساعة متأخرة، كما كان يفعل بكثرة بعد وفاة أمه، رأى فلورينتينو اريثا وهو يخرج ان هناك نوراً مضاء في مكتب ليونا كاسياني. فتح الباب دون ان يقرعه، ووجدها أمامه: وحيدة وراء الطاولة، غارقة في التفكير وجدية، بنظارة جديدة تمنحها مظهراً اكاديمياً. وانتبه فلورينتينو اريثا بلفحة سعادة إلى انهما وحيدان في المبنى، كانت ارصفة الميناء مقفرة، والمدينة هاجعة، والليل السرمدي فوق البحر المظلم، والخوار الكئيب لسفينة يحتاج وصولها لاكثر من ساعة. استند فلورينتينو اريثا على مظلته بكلتا يديه، تماماً كما فعل في زقاق الكانديليخوليسد عليها الطريق، إلا انه اليوم فعل ذلك كي لا تلحظ ارتعاش ركبتيه، وقال لها:

ـ أخبريني يا لبوة روحي: متى سنخرج من هذا؟

رفعت نظارتيها عن عينيها دون ان تفاجأ، بسيطرة مطلقة، وأبهرته بابتسامتها الشمسية. ولم تكن قد خاطبته برفع الكلفة أبداً من قبل، وقالت:

ـ آه يا فلورينتينو اريثا، عشر سنوات وأنا جالسة هنا أنتظر ان تسألني هذا السؤال.

لقد جاء متأخراً: كانت الفرصة معها وهي في حافلة البغال، وكانت تجلس معها دوماً على الكرسي نفسه الذي تجلس عليه، أما الآن فقد مضت إلى الابد. والحقيقة انها بعد كل المكائد الخفية التي قامت بها من أجله، وبعد كل البذاءات التي احتملتها من اجله، كانت قد سبقته في الحياة، فصارت تبدو اكبر بكثير من السنوات العشرين التي تكبره بها. كانت تحبه كثيراً، لذلك فضلت الاستمرار بحبه بدلاً من ان تخدعه، حتى ولو جعلته يدرك ذلك باسلوب قاسٍ.

قالت له:

ـ لا. سأشعر بانني أنام مع الابن الذي لم أنجبه أبداً.

بقي فلورينتينو اريثا وفي حلقه شوكة لانه لم يكن صاحب الكلمة الاخيرة. فكر بان المرأة حين تقول لا، فانها تنتظر الالحاح قبل اتخاذ قرارها النهائي، لكن الأمر معها كان مختلفاً: لا يستطيع ان يغامر بالخطأ ثانية. انسحب عن طيب خاطر، بل وببعض الرشاقة التي لم تكن سهلة عليه. ومنذ تلك الليلة، تبددت دون مرارة أية ظلال قد تكون بينهما، وفهم فلورينتينو

اريثا اخيراً انه يستطيع ان يكون صديقاً لامرأة دون ان يضاجعها.

كانت ليونا كاسياني هي الكائن البشري الوحيد الذي حاول فلورينتينو اريثا ان يكشف لها سر فيرمينا داثا. فالاشخاص القلائل الذين يعرفون السر بدأوا بنسيانه لاسباب قاهرة. فثلاثة منهم حملوه معهم إلى القبر دون شك: أمه، وكانت قد محته من ذاكرتها قبل موتها بكثير. وغالا بلاثيديا، التي ماتت بشيخوخة متقدمة وهي في خدمة من كانت كابنة لها. وطيبة الذكر اسكولاستيكا داثا، التي حملت له في كتاب الصلوات أول رسالة حب تلقاها في حياته، والتي لا يمكن لها ان تكون على قيد الحياة بعد كل هذه السنين. ولوريثوداثا، الذي لم يكن يعرف حينئذ ان كان ميتاً أم حياً، ويمكن ان يكون قد كشف السر للاخت فرانكا دي لا لوث محاولاً الحيلولة بذلك دون طرد ابنته من المدرسة، ولكن احتمال اشاعته الأمر ضئيل جداً. يبقى هناك أحد عشر عامل تلغراف من مقاطعة هيلديبراندا سانتشيث النائية، الذين تداولوا فيما بينهم برقيات تحمل اسميهما الكاملين وعناوينهما الدقيقة، واخيراً هيلديبراندا سانتشيث وبطانتها من بنات الخؤولة الجامحات.

ما كان يجهله فلورينتينو اريثا هو ما اذا كان عليه ضم الدكتور خوفينال اوربينو إلى القائمة. فهيلديبراندا سانتشيث كانت قد كشفت له السر اثناء احدى زياراتها الكثيرة في السنوات الأولى. لكنها فعلت ذلك بشكل عرضي جداً وفي لحظة غير مناسبة، بحيث ان الخبر لم يدخل من احدى اذني الدكتور اوربينو ليخرج من الاذن الاخرى كما ظنت هي، وانما لم يدخل إلى أي من الاذنين أبداً. الواقعة هي ان هيلديبراندا ذكرت اسم فلورينتينو اريثا كواحد من الشعراء المغمورين المؤهلين حسب رأيها للفوز بجائزة مهرجان الزهور. وقد تذكره الدكتور اوربينو بصعوبة بالغة، وقالت له دون حاجة للقول، ولكن دون ادنى نية للاساءة، بانه الشاب الوحيد الذي ارتبطت به فيرمينا داثا بعلاقة قبل زواجها. قالت ذلك وهي مقتنعة تماماً من انه قول بريء وعابر، اكثر مما هو مثير. ورد عليها الدكتور اوربينو دون ان ينظر اليها: «لم اكن أعلم ان هذا الشخص شاعر». ومحاه من ذاكرته في الحال، مثلما يمحو اموراً اخرى، لان مهنته قد عودته استخداماً اخلاقياً للنسيان.

ولاحظ فلورينتينو اريثا ان جميع المطلعين على السر، باستثناء أمه، كانوا ينتمون إلى عالم فيرمينا داثا. أما من جهته فلم يكن أحد سواه، وحيداً تحت وطأة حمل كثيراً ما احتاج إلى من يقاسمه اياه، لكنه لم يجد من هو جدير بكل هذه الثقة. وكانت ليونا كاسياني هي الاحتمال الوحيد، وكان يحتاج إلى الاسلوب والمناسبة فقط. كان يفكر بالأمر في ذلك المساء الصيفي القائظ، حين صعد الدكتور خوفينال اوربينو درج ش. ك. م. ن. المائل، باستراحة على كل

درجة لتجاوز قيظ الساعة الثالثة، وظهر لاهثاً في مكتب فلورينتينو اريثا ومبللاً بالعرق حتى بنطاله، وقال بالنفس الاخير: «ارى ان اعصاراً سيدهمنا». كان فلورينتينو اريثا قد رآه هناك عدة مرات، باحثا عن العم ليون الثاني عشر، لكنه لم يشعر أبداً بوضوح كما شعر ذلك اليوم بان لتلك الزيارة وهذا المظهر الغريب علاقة ما بحياته.

كان ذلك في الحقبة التي تجاوز فيها الدكتور خوفينال اوربينو كذلك عثرات المهنة، وأخذ يمضي متنقلاً من باب لباب كمتسول، حاملاً قبعته بيده، لجمع التبرعات لدعم مشاريعه في تشجيع الفنون. وقد كان العم ليون الثاني عشر دوماً هو أحد متبرعيه المواظبين والاسخياء، والذي كان قد بدأ في تلك اللحظة بالذات قيلولته اليومية التي تستغرق عشر دقائق، يغفوها وهو جالس على كرسي المكتب ذي النوابض. طلب فلورينتينو اريثا من الدكتور خوفينال اوربينو التفضل بالانتظار في مكتبه، المجاور لمكتب العم ليون الثاني عشر، والذي كان يُستخدم إلى حد ما كصالة انتظار.

كانا قد التقيا في مناسبات عديدة، لكنهما لم يتقابلا وجهاً لوجه كما هما اليوم، وعانى فلورينتينو اريثا مرة اخرى من احساسه بالوضاعة. لقد كانت عشر دقائق ابدية، نهض خلالها ثلاث مرات آملاً أن يكون العم قد ستيقظ قبل موعده. وتناول ترمساً كاملاً من القهوة المرة، لم يقبل الدكتور اوربينو فنجاناً واحداً منه. اذ قال: «القهوة سم». وتابع وصل موضوع بآخر دون ان يهتم ان كان يستمع اليه. لم يكن فلورينتينو اريثا قادراً على احتمال وجاهته الطبيعية، وانسياب كلماته ودقتها، ورائحة نفَسه العميق المشبع بالكافور، وسحره الشخصي، واسلوبه البسيط والمرتب الذي يجعل أتفه العبارات تبدو جوهرية لمجرد انه هو من ينطق بها، وفجأة، غيّر الطبيب موضوع الحديث على نحو مباغت.

ـ أتحب الموسيقى؟

أخذه على حين غرة. فالحقيقة ان فلورينتينو اريثا يذهب لحضور كل كونشيرتو أو عرض اوبرا يقام في المدينة، لكنه لم يكن يشعر بانه قادر على ادارة حوار نقدي ومطلع. كان ميالاً إلى الموسيقى الدارجة، وخصوصاً الفالسات العاطفية، التي لا يمكن تجاهل شبهها بالموسيقى التي كان يعزفها في مراهقته، أو بأشعاره السرية. وكان يكفيه سماعها لمرة واحدة بشكل عابر، حتى يعجز الرب نفسه عن انتزاع خيط اللحن من رأسه لعدة ليال. ولكن هذا كله لا يشكل رداً جدياً على سؤال بهذه الجدية يطرحه متخصص.

قال:

ـ يعجبني غارديل.

تفهم الدكتور اوربينو الأمر بقوله: «أرى ذلك. انه منتشر كموضة.» وانطلق يعدد مشروعاته

الجديدة والمتنوعة، والتي عليه تحقيقها كالعادة بلا اعانة رسمية. ولفت نظره إلى مستوى الاستعراضات الهابط المثبط للعزيمة، التي يجري احضارها الآن، وروعة استعراضات القرن الماضي. وهكذا كان: فمنذ سنة وهو يبيع سندات من اجل دعوة ثلاثي كورتوت ـ كاسالس ـ ثيباوز إلى مسرح الكوميدي، وليس هناك في الحكومة من يعرف من هم هؤلاء، بينما نفدت في ذلك الشهر بالذات بطاقات فرقة المآسي البوليسية رامون كارلت، وفرقة دون مانوللو دي لابريسا للأوبريت الشعبي، وفرقة لوس سانتانيلاس الايمائية ـ الخيالية التي تحوّر النصوص بشكل غريب، والتي يبدل أعضاؤها ملابسهم على المنصة في لحظة خاطفة، وفرقة دانس دي التاين، التي يُعلن عنها بانها جماعة الرقص السابقة في فرقة فوليس بيرغر، بل وتنفد كذلك بطاقات استعراضات اورسوتسن الفظيعة، هذا الباسكي المعتوه الذي يصارع الثيران بجسده. ومع ذلك، فلا مجال للشكوى، لأن الاوربيين انفسهم يقدمون من جديد أسوأ مثل باشعالهم نار حرب همجية، بينما بدأنا نحن نعيش بسلام بعد تسعة حروب اهلية خلال نصف قرن، بالامكان، ، بعد حسابات جيدة، اعتبارها حرباً واحدة: الحرب ذاتها دائماً.

واكثر ما لفت انتباه فلورينتينو اريثا في تلك الخطبة الساحرة، هو امكانية بعث مهرجان الزهور من جديد، والذي كان اكثر مبادرات الدكتور خوفينال اوربينو شهرة وديمومة. وكان عليه ان يعض لسانه كي لا يقول له بانه كان مشاركاً مثابراً في تلك المسابقة السنوية التي أصبحت تثير اهتمام شعراء بارزين، ليس في بقية انحاء البلاد وحسب، وانما كذلك في بلدان الكاريبي الاخرى.

ما كادت المحادثة تبدأ، حتى برد بخار الهواء الساخن فجأة، وصفقت عاصفة رياح متقاطعة الابواب والنوافذ، بقوة، واهتزت المبنى وأنّت ركائزه وكأنه زورق في مهب الريح. لم يبد على الدكتور خوفينال اوربينو أنه أحس بما يجري. اذ اشار بشكل عرضي إلى أعاصير حزيران المجنونة، ثم انتقل فجأة، وبلا مناسبة، للحديث عن زوجته. لم يكن يعتبرها مساعدة نشيطة في مبادراته فقط، بل وروح تلك المبادرات ذاتها. قال: «ولست شيئاً يذكر دونها». استمع اليه فلورينتينو اريثا بلا تأثر، موافقاً على كل ما يقوله بحركة خفيفة من رأسه، دون ان يتجرأ على قول اي شيء خوفاً من ان يخونه الصوت. ومع ذلك، فان عبارتين او ثلاث عبارات اخرى كانت كافية لجعله يدرك ان الدكتور خوفينال اوربينو، وسط كل هذه الالتزامات المرهقة، كان يجد فائضاً من الوقت لعبادة زوجته كما يعبدها هو، وقد اذهلته هذه الحقيقة. لكنه لم يستطع اتيان رد الفعل الذي شاءه، لان قلبه عاجله حينئذ بخاطر باهر من تلك الخواطر التي تراود القلوب فقط: كشف له انه وذلك الرجل الذي اعتبره دوماً عدوه الشخصي، ضحيتا المصير نفسه، وانهما يتقاسمان محنة عاطفة مشتركة: بهيمتان مربوطتان

معاً إلى النير نفسه. وللمرة الأولى خلال السنوات السبع والعشرين اللانهائية التي امضاها منتظراً، لم يستطع فلورينتينو اريثا مقاومة وخز الألم لاحساسه بانه لابد من موت ذلك الرجل الموقر لينعم هو بالسعادة.

مر الاعصار سريعاً، لكن عواصفه خربت خلال خمس عشرة دقيقة أحياء المستنقعات، وسببت دماراً في نصف احياء المدينة. ولم ينتظر الدكتور خوفينال اوربينو، السعيد ثانية بكرم العم ليون الثاني عشر، إلى ان يتوقف المطر نهائياً، وحمل معه ساهياً مظلة فلورينتينو اريثا الخاصة التي اعاره اياها للوصول إلى العربة. لكن هذا الاخير لم يهتم. بل على العكس: أحس بالسعادة وهو يفكر بما ستفكر فيه فيرمينا داثا عندما تعرف من هو صاحب المظلة. كان ما يزال مضطرباً بانفعالات المقابلة حين مرت ليونا كاسياني من مكتبه، فرأى انها الفرصة الوحيدة المناسبة لكشف السر لها دون مزيد من المواربة، والافضاء به كما يشق دملاً ينغص عليه حياته: الآن أو أبداً. بدأ بسؤالها عن رأيها بالدكتور خوفينال اوربينو. فاجابته دون ان تفكر بالامر تقريباً: «انه رجل يساهم بأعمال كثيرة، وربما هي كثيرة جداً، لكنني أظن أن أحداً لا يعرف ما الذي يفكر به». ثم تروت قليلاً، وهي تقضم ممحاة قلم الرصاص بأسنانها الحادة والكبيرة، أسنان زنجية كبيرة، ثم هزت كتفيها لتصفي مسألة لا تهمها بشيء، وقالت:

ـ ربما هذا هو سبب قيامه بكل تلك الاعمال: حتى لا يضطر للتفكير.

فقال:

ـ ما يؤلمني هو انه يجب أن يموت.

قالت:

ـ جميع الناس سيموتون.

قال:

ـ أجل، انما هذا أكثر من جميع الناس.

لم تفهم شيئاً. وعادت تهز كتفيها دون ان تتكلم، وانصرفت. حينئذ عرف فلورينتينو اريثا انه في ليلة مستقبلية غير محددة، وفي سرير سعيد مع فيرمينا داثا، سيروي لها انه لم يكشف سر حبها حتى للانسانة التي اكتسبت حق الاطلاع عليه، لا.. لن يكشفه أبداً، حتى ولا لليونا كاسياني ليس لانه لايريد فتح الصندوق الذي خبأ فيه سره بحرص خلال نصف حياة، وانما لانه ادرك حينئذ فقط بانه قد أضاع المفتاح.

لم يكن هذا مع ذلك، هو اكثر ما أثر فيه يومذاك. لقد أعاد له اللقاء حنين أيام شبابه، وذكرى حية من مهرجان الزهور، الذي كانت أصداؤه تدوي في كل خامس عشر من نيسان مالئة أجواء الأنتيل. ولقد كان دائماً واحداً من أبطال المهرجان، انما كعادته في كل شيء

دوماً، كان بطلاً سرياً. شارك مرات عديدة منذ مسابقة الافتتاح الأولى، قبل اربع وعشرين سنة خلت، ولم ينل أبداً اية جائزة، بل ولا التنويه الاخير. لكنه لم يكن يبالي، لانه لا يشارك طمعاً بالجائزة، وانما لانه يجد في المسابقة جاذبية خاصة: ففيرمينا داثا تولت مسؤولية فتح المغلفات المختومة بالشمع واعلان النتائج في الدورة الأولى، واقر منذ ذلك الحين ان تتولى القيام بهذا الدور في السنوات التالية.

وفيما هو مختبىء في عتمة المقاعد في الصالة، وفي عروة سترته زهرة كاميليا ندية تنبض بقوة الشوق، رأى فلورينتينو اريثا فيرمينا داثا وهي تفتح المغلفات الثلاثة المختومة بالشمع الاحمر من فوق منصة المسرح لوطني القديم، ليلة المسابقة الأولى. تساءل ما الذي سيصيب قلبها حين تكتشف انه هو الفائز بالسحلبة[1] الذهبية. كان متأكداً انها ستتعرف على خطه، وانه ستتداعى إلى مخيلتها في تلك اللحظة امسيات التطريز تحت اشجار اللوز في الحديقة الصغيرة. ورائحة الياسمين الذابل في الرسائل، وفالس الربة المتوجة، الذي يعرفه كلاهما، في الصباحات ذات الرياح. لكن ذلك لم يحدث. بل ان ما حدث كان أسوأ من اي تصور: فالسحلبة الذهبية، جائزة الشعر الوطنية المنشودة، خصصت لمهاجر صيني. والفضيحة العامة التي اثارها ذلك القرار العجيب وضع جدية المسابقة موضع الشك. لكن الخطيئة كانت عادلة، وكان لاجماع لجنة التحكيم ما يبرره في جودة القصيدة وتفوقها.

لم يصدق أحد ان يكون ناظمها هو الصيني الفائز. كان قد وصل إلى المدينة في اواخر القرن الماضي هرباً من آفة الحمى الصفراء التي عاثت خراباً بيننا اثناء مدّ السكة الحديد ما بين المحيطين، إلى جانب صينيين آخرين استقروا هنا حتى موتهم، وكانوا يعيشون بالصينية، ويتناسلون بالصينية، ويشبهون بعضهم بعضاً حتى لم يكن هناك من هو قادر على تمييزهم. لم يتجاوزوا أول الأمر العشرة أشخاص، وكان برفقة بعضهم زوجاتهم وأولادهم وكلابهم التي يأكلونها، ولكن ما ان انقضت عدة سنوات حتى فاضت أربعة أزقة في أحياء الميناء بصينيين جدد كانوا يدخلون البلاد دون ان يتركوا اثراً في سجلات الجمارك. وقد تحول بعض الشباب منهم إلى شيوخ موقرين بسرعة كبيرة جداً لم يدرك أحد معها كيف اتيح لهم الوقت ليشيخوا. وقد قسمتهم البديهة الشعبية إلى صنفين: الصينيون الاشرار والصينيون الاخيار. الاشرار هم أصحاب حانات الميناء الصغيرة الكئيبة. حيث يمكن للمرء أن يأكل كملك أو أن يموت فجأة على الطاولة أمام طبق فئران محضر مع عباد الشمس، وكانت الشكوك تحوم حول تلك الحانات بانها ليست سوى ستار يخفي وراءه تجارة رقيق أبيض

(1) السحلبة: زهر نبتة السحلبية. وهي نبتة برية ازهارها ذات لون ارجواني.

وغيرها. أما الصينيون الأخيار فهم صينيو محلات كيّ الملابس، ورثة هذا العلم المقدس، الذي يعيدون القمصان أنصع مما كانت عليه وهي جديدة، جاعلين ياقاتها ومعاصمها تبدو وكأنها خبز قربان طازج. وكان أحد هؤلاء الصينيين الطيبين هو الذي هزم في مهرجان الزهور اثنين وسبعين منافساً معروفاً.

لم يفهم أحد من الجمهور الاسم حين قرأته فيرمينا داثا مبهورة ليس لانه كان اسماً غريباً وحسب، بل لأن أحداً ما كان يعلم علم اليقين كيف هي اسماء الصينيين أيضاً. لكنهم لم يفكروا بالأمر طويلاً، اذ برز الصيني الفائز من آخر الصالة بتلك الابتسامة السماوية التي يبتسمها الصينيون حين يصلون إلى بيوتهم في وقت مبكر. لا بد انه جاء وهو متأكد من الفوز، فارتدى لاستلام الجائزة قميص الحرير الاصفر الذي يلبسونه في طقوس الربيع. تلقى السحلبة الذهبية من عيار اربعة وعشرين قيراطاً، وقبلها بسعادة وسط استهزاء المستنكرين الصاخب. لم يتأثر. وانتظر في منتصف المنصة. ثابت الجنان كرسول عناية الهية أقل دراماتيكية من التي نؤمن بها، وانتهز أول لحظة صمت ليقرأ القصيدة. فلم يفهمها أحد. لكن حين توقف تيار السخرية الجديد، أعادت فيرمينا داثا قراءتها دون تأثر، بصوتها الأبح اللماح، فسيطر الذهول على الجميع منذ البيت الأول. لقد كانت سوناتة من أنقى سلالات السوناتات البرناسية، متقنة، ومخترقة بنفحة الهام تشي بمشاركة يد بارعة في نظمها. التفسير الوحيد المقبول هو ان أحد الشعراء الكبار قد خطط لتلك المزحة ليسخر من مهرجان الزهور، وان الصيني قد شارك فيها مقرراً كتمان السر حتى الموت. صحيفة دياريو ديل كوميرثيو، جريدتنا العريقة، حاولت ترقيع شرفنا الحضاري بمقال ضليع وأقرب إلى عسر الهضم حول عراقة تأثير الصينيين بمنطقة الكاريبي، وحقهم بالاشتراك عن جدارة في مهرجان الزهور. ولم يشك كاتب المقال في ان واضع السوناتة هو من يدعي ذلك فعلاً، وبرر الأمر دون لف ولا دوران بدءاً من العنوان: **الصينيون كلهم شعراء**. مدبرو المؤامرة، ان كان لها من مدبرين، تعفنوا في قبورهم مع السر. وكذلك مات الصيني الفائز بعد عمر شرقي دون ان يعترف، وقد دفن مع السحلبة الذهبية في التابوت، وكذلك مع غصة انه لم يستطع ان يحقق في حياته الشيء الوحيد الذي كان يتوق اليه، ألا وهو اعتياده كشاعر. وبمناسبة موته ذكرت الصحافة حادث مهرجان الربيع المنسي، وأعيد توزيع السوناتة على ألحان كمان محدثة وبغناء فتيات منتفخات بنبات قرن الرخاء الذهبي، وانتهز الارباب القيمون على الشعر المناسبة ليضعوا الامور في نصابها: كانت السوناتة تبدو للجيل الجديد على درجة من السوء بحيث لم يعد أحد يشك في ان كاتبها هو الصيني الميت فعلاً.

لقد ارتبطت تلك الفضيحة في ذاكرة فلورينتينو اريثا بذكرى متأنقة مجهولة كانت تجلس إلى جانبه: كان قد تأملها عند بدء الاحتفال. لكنه ما لبث ان نسيها في رعب الانتظار. لقد لفتت انتباهه لبياضها اللؤلؤي، وشذى البدينة السعيدة الذي يفوح منها، ولصدرها الضخم النديّ المتوج بزهرة مانوليا اصطناعية. كانت ترتدي فستاناً مكسراً من المخمل الاسود، شديد السواد كعينيها الدمستين، وكان شعرها أشد اسوداداً، تثبته على العنق بمشط زينة كالذي تستخدمه الغجريات. كانت تضع اقراطاً متدلية، وعقداً من النوع ذاته وخواتم مشابهة في عدة أصابع، جميعها ذات طبعة براقة، وخالاً مرسوماً بالقلم على وجنتها اليمنى. وفي ضجة التصفيق النهائي، نظرت إلى فلورينتينو اريثا بكآبة صريحة وقالت له:

ـ صدقني اني آسفة من أعماق روحي.

ذهل فلورينتينو اريثا، ليس للتعزية التي كان يستحقها فعلاً، وانما لاندهاشه بان هناك من يعرف سره. وأوضحت له: «ادركت ذلك للطريقة التي كانت تنبض بها الزهرة فوق صدرك اثناء فتح المغلفات». أرته زهرة المانوليا الاصطناعية التي كانت تحملها بيدها، وفتحت له قلبها قائلة:

ـ لهذا السبب نزعت زهرتي.

كانت على وشك البكاء للهزيمة، لكن فلورينتينو اريثا أبدل مزاجها بغريزته كصياد ليلي حين قال لها:

ـ هلمي بنا إلى مكان نبكي فيه معاً.

اصطحبها إلى بيتها. وفيما هما أمام الباب، ونظراً لأن الوقت كان منتصف الليل تقريباً ولا وجود لاحد في الشارع، فقد أقنعها بان تدعوه لتناول كأس من البراندي ورؤية ألبومات قصاصات وصور أحداث اكثر من عشرة أعوام من الحياة العامة، أخبرته انها تملكها. انها خدعة قديمة جداً، ولكنها كانت لا ارادية هذه المرة لانها هي التي تحدثت عن البوماتها فيما هما قادمان من المسرح الوطني. دخلا. وأول ما لاحظه فلورينتينو اريثا هو ان باب غرفة النوم الوحيدة كان مفتوحاً، وان سريرها كان فسيحاً وفخماً، عليه غطاء من البروكار وله مسند علوي من البرونز المزخرف. لقد بلبله هذا المشهد. ولا بد انها انتبهت لذلك، اذ تقدمت عبر الصالة وأغلقت باب حجرة النوم. ثم دعته للجلوس على متكأ من اكريتون المزين برسوم أزهار حيث كان ينام هر، ووضعت على طاولة صغيرة أمامه مجموعة ألبوماتها. بدأ فلورينتينو اريثا بتصفحها دون اسراع، مفكراً بخطواته التالية اكثر من تفكيره بما يراه، وفجأة رفع بصره فرأى عينيها ممتلئتين بالدموع. فنصحها بان تبكي متى شاءت، دون خجل، فلا شيء يخفف الآلام كالبكاء، لكنه اشار عليها بان تحلّ الصديري لتبكي براحة. وسارع

لمساعدتها، لأن الصديري كان مثبتاً بقوة على الظهر بواسطة رباط متقاطع. ولكنه قبل ان ينتهي من حلّ الرباط، اذا بالصديري يفلت وحده بالضغط الداخلي، وتنفست الاثداء الفلكية براحتها.

فلورينتينو اريثا الذي لم يفقد أبداً رهبة المرة الأولى، حتى في المناسبات الاكثر سهولة، غامر بمداعبة سطحية على العنق برؤوس أصابعه، فتلوت بآهة طفلة مدللة دون ان تتوقف عن البكاء. عندئذ قبلها في الموقع ذاته، بنعومة، وكأنه يقبلها بأصابعه، ولم يستطع عمل ذلك ثانية لانها التفتت اليه بكامل جسدها العظيم، الشره والدافيء، وتدحرجا معاً على الأرض. استيقظ القط النائم على المتكأ مطلقاً مواء حاداً، وقفز فوقهما. بحثا عن بعضهما باللمس كمبتدئين متهورين ووجدا نفسيهما كيفما اتفق، متقلبين فوق الألبومات المنتزعة اغلفتها، بملابسهما، غارقين في العرق، واكثر انشغالاً بتفادي خرمشات القط الغاضبة من اهتمامهما بكارثة الحب التي يقترفانها. ولكنهما منذ تلك الليلة، بجراحهما التي ما زالت تنزف، تابعا ممارسة الحب لعدة سنوات.

عندما انتبه إلى انه بدأ يحبها، كانت قد أصبحت في أوج الاربعينات، وكان يكاد ان يكمل الثلاثين. اسمها سارا نوريغا، وقد نعمت بربع ساعة من الشهرة في شبابها، حين فزت في مسابقة بديوان شعر عن حب الفقراء، لم يجد طريقه إلى النشر أبداً. كانت معلمة لمادة التمدن والتربية المدنية في المدارس الرسمية، وتعيش على راتبها في بيت مستأجر في زقاق لوس نوفيوس المضطرب، في حي خيتسيماني القديم. لقد عرفت عدداً من العشاق الطارئين، دون ان تزاود أياً منهم آمال الزواج منها، لانه كان يصعب على رجل من وسطها وفي زمنها الاقتران بامرأة ضاجعها. كما انها لم تعد تغذي هذا الأمل في نفسها بعد ان هجرها خطيبها الرسمي الأول، الذي أحبته بالعاطفة شبه المجنونة التي كانت قادرة عليها وهي في الثامنة عشرة من عمرها، وقد هرب من التزامه قبل اسبوع من الموعد المحدد للزفاف، وتركها ضائعة كعروس مخدوعة، أو كعزباء مستعملة، كما كان يقال في ذلك الحين. ورغم قسوة تلك التجربة وسرعة انتهائها، فانها لم تسبب لها أية مرارة، بل رسخت لديها قناعة طاغية بان الحياة بالزواج او دونه، بدون رب أو قانون، لا تستحق ان تعاش ان لم تكن بوجود رجل في الفراش. واكثر ما كان يعجب فلورينتينو اريثا فيها هو انها كانت تمص مصاصة طفل رضيع وهي تمارس الحب لكي تصل إلى ذروة المجد. وقد اقتنيا مجموعة من مختلف الاحجام والاشكال والألوان التي وجداها في السوق، وكانت سارا نوريغا تعلقها على مسند السرير لتجدها وهي مغمضة العينين في لحظات الحاجة الماسة لها.

ورغم انها كانت حرة مثله، وربما انها ما كانت لتعارض كشف علاقتهما للملأ، إلا ان فلورينتينو اريثا طرح العلاقة كمغامرة سرية. كان يتسلل من باب الخدمة، في وقت متأخر من الليل دوماً، ويهرب على رؤوس أصابعه قبيل الفجر بقليل. وكان يعرف مثلما تعرف هي انه في بيت مشترك يعيش فيه عدد كبير من السكان كذاك البيت، لابد للجيران في النهاية من أن يكونوا اكثر اطلاعاً مما يتظاهرون. ولكن فلورينتينو اريثا كان هكذا، حتى ولو كان الأمر مجرد معادلة نظرية، وسيبقى كذلك خلال بقية حياته. لم يقترف أي خطأ أبداً، سواء معها أو مع أي واحدة اخرى، ولم يرتكب أبداً أي خروج على هذا المبدأ. لم يكن يبالغ. وفي مناسبة واحدة فقط ترك اثراً مشبوهاً أو دليلاً مكتوباً، كاد يكلفه حياته. والحقيقة انه تصرف دائماً كما لو كان الزوج الابدي لفيرمينا داثا، زوج غير مخلص ولكنه متمسك بزوجته، يناضل دون هوادة ليتحرر من عبوديتها، ولكن دون ان يسبب لها غمّ الخيانة الزوجية.

لم يكن ممكناً لهذه السرية المحكمة ان توفق دونما خطأ. فحتى ترانسيتو اريثا توفيت وهي مقتنعة ان ابنها الذي حبلت به بالحب وترعرع للحب كان محصناً ضد أي شكل من اشكال الحب بسبب محنته الأولى في شبابه، ومع ذلك، فان اناساً كثيرين أقل اريحية ممن هم قريبون منه، ويعرفون طبيعته السرية وميله إلى الملابس الزاهدة والمستحضرات الغريبة، كانوا يشاركون في الشكوك بانه ليس محصناً ضد الحب وانما ضد المرأة فقط. وكان فلورينتينو اريثا يعرف ذلك ولكنه لم يفعل شيئاً لتكذيبة. كما ان الامر لم يكن يقلق سارا نوريغا، وغيرها من النساء الكثيرات اللواتي احبهن، بل وأولئك اللواتي كن يمتعنه ويستمتعن معه دون ان يحببنه، ويقبلن به كما هو في الواقع: رجل عابر.

صار يذهب إلى بيتها في أي وقت، وخصوصاً في صباحات أيام الآحاد، التي كانت أهدأ الأوقات. فكانت تترك ما تقوم به، مهما كان، وتكرس نفسها بكامل جسدها محاولة اسعاده في السرير التاريخي الفسيح الذي كانت متأهبة له دوماً، والذي لم تكن تسمح بممارسة الحب عليه بطقوس شكلية. ولم يكن فلورينتينو اريثا ليفهم كيف يمكن لعزباء بلا ماض استخدام جسدها الدلفيني العذب بكل هذه الخفة وهذا الحنان كما لو انها تتحرك تحت الماء. وكانت تدافع عن نفسها بالقول ان الحب، قبل كل شيء، هو موهبة طبيعية. وتقول: «اما ان يولد الانسان وهو يعرفه أو انه لن يعرفه أبداً». كان فلورينتينو اريثا يتلوى بغيرة تفكيره بانها ربما تكون اكثر استعمالاً مما تتظاهر به، وكان عليه ان يبتلع غيرته كلها، لانه كان يقول لها ما قاله للاخريات جميعهن، بانها عشيقته الوحيدة. ومن الاشياء الكثيرة التي لم يكن يحبها، كان صبره على وجود القط الهائج في السرير، والذي كانت سارا نوريغا تقلم مخالبه حتى لا

يمزقها بخرمشته اثناء ممارستها الحب.

ومع ذلك، وكفرحها في السرير حد الانهاك، كانت تحب تكريس تعب الحب لعبادة الشعر. ولم تكن تتمتع بذاكرة مذهلة في حفظ أشعار عصرها العاطفية وحسب، تلك التي يباع جديدها في كتيبات بستافين في الأزقة، بل انها كانت تعلق بمسامير على الجدران قصائدها المفضلة، لتقرأها بأعلى صوت في أي وقت. وكانت قد نظمت في مقاطع احد عشرية مزدوجة نصوص دروس التمدن والتربية المدنية، على طريقة المنظومات المستخدمة في تعليم الاملاء حينئذ، ولكنها لم تحصل على الموافقة الرسمية باقرارها. لقد كان اندفاعها الخطابي يحملها أحياناً إلى مواصلة القاء الشعر باعلى صوتها اثناء ممارستها الحب، مما يضطر فلورينتينو اريثا لدس مصاصة في فمها، مثلما يفعلون بالأطفال لوقفهم عن البكاء.

كان فلورينتينو اريثا يتساءل وهما في أوج علاقتهما، اي الحالتين اللتين يتخذان هي الحب.. هل هي في ما يفعلانه في السرير المضطرب أم تأملهما في أمسيات الآحاد الهادئة فتطمئنه سارا نوريغا بحجة بسيطة هي ان كل ما يفعلانه عاريين هو الحب. وكانت تقول: «حب الروح من الخصر فما فوق وحب الجسد من الخصر فما تحت». وقد بدالها هذا التصنيف مناسباً لقصيدة حول الحب المقسوم، كتباها بأربعة أيد، وتقدمت بها إلى مهرجان الزهور الخامس، موقنة ان أحداً لم يشارك حتى ذلك الحين بقصيدة على هذا النحو من الاصالة. لكنها خسرت من جديد.

كانت ثائرة عندما اصطحبها فلورينتينو اريثا إلى بيتها. ولم تستطع تفسير سبب ثورتها. كانت مقتنعة ان ثمة مؤامرة تدبرها فيرمينا داثا ضدها، لتحول دون فوز قصيدتها بالجائزة. لم يولها فلورينتينو اريثا اذناً صاغية. لقد كان مكتئب المزاج منذ تسليم الجوائز، فهو لم ير فيرمينا داثا منذ زمن بعيد، وقد أحس تلك الليلة بانها قد تغيرت تغيراً عميقاً: فللمرة الأولى تظهر جلية لأول وهلة حالتها كأم. لم يكن هذا بالأمر الجديد عليه، فقد كان يعلم ان ابنها بدأ الذهاب إلى المدرسة. ولكن عمرها الامومي لم يكن قد بدا له رغم ذلك بمثل هذا الوضوح الذي رآه في تلك الليلة، سواء في محيط خصرها أو في مشيتها اللاهثة إلى حد ما، أو في عثرات صوتها حين قرأت قائمة الجوائز.

وفي محاولة لتثبيت ذكرياته عاد يتصفح ألبومات مهرجانات الزهور فيما سارا نوريغا تعد شيئاً للأكل. رأى صوراً مأخوذة من مجلات، وبطاقات مصفرة من تلك التي تباع كتذكارات في الازقة، وبدا له ذلك كمراجعة وهمية لخداع حياته بالذات. فقد كان يرتكز حتى ذلك الحين على وهم ان الدنيا هي التي تتغير، فالعادات تتغير وكذلك الموضة.. كل شيء يتغير إلا هي. لكنه رأى في تلك الليلة، للمرة الأولى، وبشكل جليّ كيف كانت حياة فيرمينا داثا

تمضي، وكيف كانت حياته هو تمضي، بينما لا يفعل شيئاً سوى الانتظار. لم يكن قد تحدث عنها لأحد أبداً، لانه يعرف انه عاجز عن نطق اسمها دون ان يظهر الشحوب على شفتيه. أما في هذه الليلة، وفيما هو يتصفح الالبومات كما يفعل في معظم سهرات الاحد المملة، حققت سارا نوريغا صدفة، اصابة من تلك التي تجمد الدم حين قالت:

- انها لعاهرة.

قالت ذلك لدى مرورها، ناظرة إلى صورة تظهر فيها فيرمينا داثا متنكرة كفهدة سوداء في حفلة رقص تنكرية، ولم يكن عليها ان تذكر اسماً ليعرف فلورينتينو اريثا عمن تتحدث. سارع إلى الدفاع بحذر، خائفاً من الانزلاق إلى كشف يزعزع حياته. نبه إلى انه لم يعرف فيرمينا داثا إلا عن بعد، وان معرفته بها لم تتجاوز التحيات الرسمية وانه لا يمتلك أية أخبار عن حياتها الخاصة، لكنه ابدى قناعته بانها امرأة محترمة، خرجت من لا شيء. وارتفعت بمواهبها الذاتية.

فقاطعته سارا نوريغا:

- بفضل زواج مصلحة من رجل لا تحبه. انها أحط وسيلة للدعارة.

كانت أم فلورينتينو اريثا قد قالت له ذلك يوماً بفظاظة أقل، انما بالصراحة نفسها لتواسيه في محنته. ولم يجد وهو مضطرب حتى النخاع رداً مناسباً على قسوة سارا نوريغا، فحاول الهرب من الموضوع. لكن سارا نوريغا لم تسمح بذلك قبل ان تفرج عن نفسها ضد فيرمينا داثا. وبضربة حدس لم تكن قادرة على تفسيرها، أبدت قناعتها بانها هي من دبر المؤامرة لحجب الجائزة عنها. لم يكن ثمة سبب لتصديق ذلك: فهما لا تعرفان بعضهما، ولم تلتقيا أبداً، وليس لفيرمينا داثا أية علاقة بقرارات المسابقة، هذا اذا كان لها أي اطلاع على اسرارها. وقالت سارا نوريغا بشكل قاطع: «اننا معشر النساء عرافات». ووضعت حداً للنقاش.

منذ هذه اللحظة، رآها فلورينتينو اريثا بعينين اخريين. فالسنوات كانت تمضي بالنسبة لها كذلك. وكانت طبيعتها الخصبة تذوي دون أمجاد، وصار حبها يتماطل في النحيب، وبدأت المرارات القديمة تظهر على اجفانها. انها زهرة الأمس. ثم انها، في فورة غضب الهزيمة، أهملت حساب كؤوس البراندي التي تجرعها. لم تكن في ليلها. وفيما هما يأكلان رز جوز الهند الذي اعادت تسخينه، حاولت ان تحدد مدى مساهمة كل منهما في كتابة القصيدة الخاسرة، لتعرف كم ورقة من أوراق السنحلبة الذهبية سيكون نصيب كل واحد منهما لو انهما فازا. ولم تكن المرة الأولى التي ينشغلان فيها بمناقشات بيزنطية، لكنه انتهز الفرصة ليتنفس من الجرح الذي انفتح لتوه، واشتبكا في نزاع بائس أحيا احقادهما المتراكمة خلال خمس

سنوات من الحب المنقسم.

وقبل عشر دقائق من الساعة الثانية عشرة، صعدت سارا نوريغا على كرسي لتملأ ساعة البندول المعلقة، وضبطتها على الثانية عشرة تماماً دون ان تنظر اليه، ربما كانت راغبة ان تقول بذلك دون ان تقوله بان وقت انصرافه قد حان. أحس فلورينتينو اريثا حينئذ بضرورة بتر تلك العلاقة الخالية من الحب من جذورها، وبحث عن الفرصة ليكون هو صاحب المبادرة، كما اعتاد ان يفعل دوماً. كان يدعو الله بان تسمح له سارا نوريغا بالبقاء للنوم في سريرها ليقول لها ان لا، وان كل شيء قد انتهى بينهما، وطلب منها ان تجلس إلى جانبه حين انتهت من ضبط الساعة. لكنها فضلت البقاء بعيدة عنه، على كرسي من كراسي الزيارات. عندئذ مد لها فلورينتينو اريثا اصبعه السبابة مبللة بالبراندي لتمصها، كما كانت تحب ان تفعل قبل الحب في ازمان اخرى. فتجنبتها قائلة:

ـ ليس الآن. انني أنتظر شخصاً.

منذ صدته فيرمينا داثا، تعلم فلورينتينو اريثا كيف يحتفظ لنفسه دوماً بالقرار الاخير. كان بامكانه الاستمرار بمحاصرة سارا نوريغا لو ان الظروف كانت أقل مرارة، متأكداً من انه سينتهي إلى قضاء الليل متقلباً معها على السرير، لانه يعرف ان امرأة ضاجعت رجلاً لمرة واحدة، ستتابع مضاجعته كلما شاء، طالما عرف كيف يلينها في كل مرة. لقد احتمل كل شيء بفضل هذه القناعة، ومر على كل شيء دون مبالاة، بما في ذلك أقذر أنواع الحب، حتى لا يتيح الفرصة لاي امرأة ولدتها امرأة اتخاذ قرار القطيعة النهائي. لكنه أحس في تلك الليلة بانه ذليل جداً، فجرع البراندي دفعة واحدة، فاعلاً كل ما يجعل الغضب يبدو عليه، ومضى دون ان يودعها. ولم يريا بعضهما بعدها.

كانت العلاقة بسارا نوريغا احدى أطول علاقات فلورينتينو اريثا واكثرها استقراراً، رغم انها لم تكن العلاقة الوحيدة التي نسجها خلال تلك السنوات الخمس. وعندما احس بانه يشعر بالراحة معها، وخصوصاً في الفراش، ودون ان يتوصل إلى احلالها مع فيرمينا داثا، استفحلت لياليه كصياد متوحد، وكان يتدبر أمره لتوزيع وقته وقواه إلى حيث يمكنه الوصول. ومع ذلك، استطاعت سارا نوريغا تحقيق معجزة تهدئته مع مرور الوقت. واستطاع العيش على الأقل دون رؤية فيرمينا داثا، على العكس مما كان عليه من قبل، حين كان يتوقف عن عمله الذي يؤديه في أي وقت كان ليخرج بحثاً عنها في اتجاهات غير صحيحة تمليها عليه افكاره، وفي شوارع لا تخطر على بال، وأماكن وهمية يستحيل وجودها فيها، هائماً على غير هدى وفي صدره شوق لن يهدأ ما لم يرها ولو للحظة واحدة. لقد اثار قطع علاقته بسارا نوريغا اشواقه الكامنة، وأحيى مجدداً بالاحساسيس التي كانت تنتابه في امسيات

الحديقة الصغيرة اثناء قراءته اللانهائية، ولكنه كان احساساً مثقلاً بالرغبة في استعجال موت الدكتور خوفينال اوربينو.

كان يعرف منذ زمن انه مرصود لاسعاد أرملة، وانها مرصودة لاسعاده، ولم يكن هذا ليقلقه. بل على العكس: كان مستعداً للأمر. ولكثرة ما عرف منهن في غزواته كصياد متوحد، أصبح فلورينتينو اريثا يعرف ان الدنيا مليئة بأرامل سعيدات. لقد رآهن يفقدن صوابهن أسى أمام جثة الزوج، ويتوسلن دفنهن بالحياة في التابوت ذاته كي لا يواجهن نائبات المستقبل من دونه، ولكنهن كلما أخذن بالانسجام مع واقعهن الجديد كن ينبعثن من الرماد بحيوية مخضوضرة. يبدأن الحياة كاشباح طفيليات في البيوت الكبيرة المقفرة ويصبحن نجيات خادماتهن، عاشقات وسائدهن، ليس لديهن ما يفعلنه بعد سنوات طويلة من الأسر المجدب. يضيعن فائض الوقت في تثبيت الازرار التي لم يكن لديهن متسع من الوقت لتثبيتها على ثياب الميت، ويكوين ثم يعدن كيّ قمصانه ذات المعاصم والياقات البارافينية لتكون جاهزة دوماً. ويتابعن وضع الصابون له في الحمام، ووضع وجوه الوسائد التي تحمل الحرف الأول من اسمه على السرير، وطبقه وادوات طعامه في مكانه على المائدة، فلربما عاد من الموت دون اشعار مسبق، كما كانت عادته في الحياة. ولكنهن في طقوس العزلة تلك، يعين شيئاً فشيئاً بأنهن أصبحن سيدات مصيرهن، بعد تخليهن ليس عن لقب اسرتهن فقط، بل وعن هويتهن ذاتها، كل ذلك مقابل أمان لم يكن اكثر من حلم آخر من احلامهن وهن عرائس. هن وحدهن كن يعرفن كم كان ثقل الرجل الذي احببن بجنون، والذي ربما احبهن، اذ كان عليهن ان يتابعن تربيته حتى النفس الاخير. كان عليهن ارضاعه، وتبديل حفاضاته الملوثة، وتسليته بخدع الامهات لتهدئة مخاوفه عند خروجه صباحاً لمواجهة وجه الواقع. ولكنهن ما ان يرينه يخرج من البيت لابتلاع العالم بإغواء منهن، حتى يداخلهن الخوف من ألا يعود الرجل أبداً. هكذا كانت حياتهن. أما الحب، ان كان له من وجود فهو شيء آخر... حياة اخرى.

في بطالة الوحدة الشافية، تكتشف الأرامل أيضاً ان الطريقة الشريفة في الحياة هي المرتبطة بالجسد، بالأكل حين يجعن فقط والحب دون نفاق، والنوم دون حاجة إلى تصنع النوم للافلات من الحب الرسمي، وسيادتهن اخيراً على سرير كامل لهن وحدهن لا يشاركهن أحد نصف الدثار ولا نصف الهواء الذي يتنفسن ولا نصف ليلهن، وقدرتهن على النوم إلى ان يرتوي الجسد من الحلم باحلامهن وحدهن واستيقاظه حين يحلو له. لقد كان فلورينتينو اريثا يلتقي بهن في صباحاته كصياد متخف وهن خارجات من قداس الخامسة صباحاً، مكفنات بالأسود وبوم القدر على اكتافهن. وما ان يرينه في ضوء الفجر حتى يجتز

الشارع وينتقلن إلى الرصيف الآخر بخطوات ضيقة ومتقطعة، كخطوات عصفور، لان مجرد مرورهن قريباً من رجل قد يلوث شرفهن. ولكنه كان موقناً رغم ذلك من أن أي ارملة حزينة تحمل في داخلها، اكثر من أي امرأة اخرى، بذرة السعادة.

أرامل كثيرات في حياته، ابتداء من ارملة ناثاريت، اتحن له ان يرى كيف يمكن للمتزوجات ان يكن سعيدات بعد وفاة ازواجهن وما كان بالنسبة له مجرد حلم تحول بفضلهن الى احتمال يمكن لمسه باليد. ولم يجد اسباباً تحول دون ان تكون فيرمينا داثا أرملة مماثلة، دربتها الحياة على القبول به كما هو، دون اوهام الشعور بالذنب نحو الزوج الميت، حاسمة امرها على اكتشاف السعادة الاخرى معه لتنعم بالسعادة مرتين، بحب جسدي يومي يتحول في كل لحظة إلى معجزة حياة، وحب آخر لها وحدها، محصن ضد اية عدوى بمناعة الموت..

ربما انه ما كان ليتحمس لو ارتاب مجرد ارتياب بان فيرمينا داثا بعيدة عن تلك الحسابات الحالمة، حين كان يلمح بالكاد افق عالم بكل شيء فيه مهيأ مسبقاً باستثناء الخذلان. وقد كان لثراء المرء في ذلك الزمن منافع كثيرة، وكذلك مضار كثيرة بالطبع، ولكن نصف الناس كانوا يتشوقون للثراء ويرون فيه الوسيلة الاكثر احتمالاً للخلود. وكانت فيرمينا داثا قد صدت فلورينتينو اريثا في ومضة نضوج دفعت ثمنها فوراً في نوبة حسرة، لكنها لم تشك للحظة في صواب قرارها. لم تكن قادرة للوهلة الاولى على تفسير الاسباب الخفية التي منحتها تلك البصيرة، ولكنها بعد سنوات طويلة جداً، وهي على اعتاب الشيخوخة، اكتشفت تلك الاسباب فجأة ودون ان تدري كيف، وذلك اثناء حديث عرضي عن فلورينتينو اريثا. جميع المشتركين في الحديث كانوا يعرفون أنه ولي العهد في شركة الكاريبي للملاحة النهرية في حقبة ازدهارها، وجميعهم كانوا متأكدين من انهم قد رأوه مرات عديدة، بل ودخلوا معه في صفقة ما، لكن اياً منهم لم يستطع تحديد ملامحه في ذاكرته عندئذ انكشفت لفرمينا داثا الاسباب الكامنة في اللاوعي والتي منعتها من حبه. وقالت: «يبدو وكأنه ليس شخصاً وانما طيفاً». وهكذا كان: طيف شخص لم يره أحد من قبل. ولكن فيما هي تصد حصار الدكتور خوفينال اوربينو، الرجل النقيض، كانت تشعر بانها تتعذب بشبح الذنب، وهو الاحساس الوحيد الذي كانت تعجز عن احتماله. فحين تشعر به، يسيطر عليها نوع من الذعر لا تستطيع التحكم به إلا عندما تجد من يطمئن ضميرها. فمنذ طفولتها المبكرة، عندما كانت تكسر صحناً في المطبخ، أو عندما يقع أحد، أو حين تعصر أحد أصابعها بباب، كانت تلتفت مذعورة نحو أقرب شخص كبير، وتسارع إلى اتهامه: «انت السبب». مع انها ما كانت تهتم في الحقيقة بمن هو المذنب ولا بالاقتناع ببراءتها.. كان يكفيها اقرار الامر هكذا.

كان شبح عقدة الذنب واضحاً وقد أدرك الدكتور اوربينو في الوقت المناسب مدى تهديده

لجو الانسجام في بيته، فكان كلما لمحه يسارع القول لزوجته: «لاتقلقي ياحبي، أنا السبب». اذ لم يكن يخيفه شيء كخوفه من قرارات زوجته المفاجئة والحاسمة، وكان مقتنعاً ان منشأ كل ذلك في احساسها بالذنب. ومع ذلك، فان قلقها لصدها فلورينتينو اريثا لم يُحَل بعبارة مواساة. والت فيرمينا داثا فتح الشرفة في الصباح لعدة شهور، وكانت تحن دوماً للشبح المتوحد الذي كان يترصدها في الحديقة الصغيرة المقفرة، وتراقب الشجرة التي كان يجلس تحتها، والمقعد المختفي حيث كان يجلس ليقرأ مفكراً بها، ومتألماً من اجلها، ثم تغلق النافذة من جديد، وتتنهد: «يا للرجل البائس». ولقد قاست من خيبة الأمل لانه لم يكن عنيداً ومثابراً كما ظنت، حين كان الوقت قد فات لترقيع الماضي، ولم تتوان عن الشعور بالجزع المتأخر يوماً لرسالة لم تصلها أبداً. ولكنها حين اضطرت لمواجهة قرار الزواج من خوفينال اوربينو وقعت في ازمة رهيبة، اذ ادركت انها لا تملك مبررات ملائمة لقبوله بعد ان رفضت فلورينتينو اريثا دون مبررات ملائمة. والواقع انها ما كانت تحبه اكثر مما أحبت الآخر، اضافة إلى ان معرفتها به كانت أقل بكثير، ولم تكن تجد في رسائله تلك الحمى التي وجدتها في رسائل الآخر، كما انه لم يقدم لها ما يكفي من الادلة المؤثرة على قراره. فالحقيقة ان خوفينال اوربينو لم يطرح مطالبه يوماً بتعابير الحب، ومن المثير للفضول ان مؤمناً كاثوليكياً مثله لم يكن يعرض عليها سوى مكاسب دنيوية: الأمن، النظام، السعادة، وهي أرقام ما ان تجمع إلى بعضها حتى تتحول مباشرة إلى شيء كالحب: الحب تقريباً. ولكنها ليست الحب، وقد كانت هذه الشكوك تضاعف من قلقها، لانها لم تكن مقتنعة كذلك بان الحب هو ما تحتاجه بإلحاح للحياة.

وعلى كل حال، فان العامل الاساسي ضد الدكتور خوفينال اوربينو كان في شبهه الاكثر من مريب مع الرجل المثالي الذي كان يأمل فيه لورنيثو داثا كزوج لابنته. كان مستحيلاً عليها ألا تراه كشخصية خارجة من اسطورة ابوية، مع انه لم يكن كذلك في الواقع. لكن فيرمينا داثا كانت مقتنعة بانه كذلك مذ رأته يدخل بيتها للمرة الثانية في زيارة طبية لم يدعَ اليها. ثم جاءت احاديثها مع ابنة خالها هيلديبراندا لتزيد من بلبلتها. فبسبب احساس هذه الاخيرة بانها ضحية، كانت تجد نفسها في فلورينتينو اريثا، متناسية ان لورينثو داثا انما بعث بطلبها لتمارس تأثيرها لصالح الدكتور اوربينو. والله وحده يعلم الجهد الذي بذلته فيرمينا داثا لتمنع نفسها من مرافقة ابنة خالها حين ذهبت لتتعرف على فلورينتينو اريثا في مكتب التلغراف. فقد كانت ترغب أيضاً برؤيته ثانية لمواجهته بشكوكها، التحدث اليه على انفراد، ومعرفته بعمق للتأكد من ان قرارها المتهور لن يورطها في اتخاذ قرار آخر أشد خطورة، يكون استسلاماً في حربها الشخصية ضد ابيها. ولكنها فعلت ذلك في اللحظة الحرجة من حياتها، دون ان

تأخذ بعين الاعتبار جمال المتقدم اليها الذكوري، ولا ثروته الخرافية، ولا مجده المبكر، ولا أي ميزة اخرى من ميزاته الواقعية، وانما فعلت ذلك وهي ذاهلة. يساورها الخوف من ان تفلت الفرصة من يدها، ومن اقترابها من اكمال احدي وعشرين سنة، وهو السن المتعارف عليه، الذي عليها بعده الاستسلام للقدر. كانت لحظة كافية لاقدامها على اتخاذ القرار المبين في قوانين الرب والبشر: حتى الموت. عندئذ زالت جميع الشكوك، وفعلت دون ندم ما أملاه عليها العقل ورأته لائقا: مرت باسفنجة دون دموع فوق ذكرى فلورينتينو اريثا، ومسحته تماماً، مفسحة المجال لينفتح في المكان الذي كان يحتله من ذاكرتها مرجاً من شقائق النعمان. والشيء الوحيد الذي سمحت لنفسها به كان اطلاق تنهيدة أعمق من المعتاد، التنهيدة الاخيرة: «ياللرجل البائس!».

لكن اكثر شكوكها اخافة بدأت فور عودتها من رحلة الزفاف. فما ان فتحت الصناديق، وحلت الحزم والطرود وأفرغت محتويات الاحد عشر صندوقاً التي أحضرتها معها لتتسنم موقعها كربة بيت وسيدة قصر المركيز دي كاسالدويرو القديم، حتى تنبهت بانبهار قاتل إلى انها سجينة في بيت خاطيء، والأسوأ من ذلك انا كانت تعيش مع الرجل الذي لم يكن رجلاً. لقد احتاجت ست سنوات للخروج، كانت أسوأ سني حياتها، قضتها في يأس من مرارة دونيا بلانكا، حماتها، وتخلف اختي زوجها العقلي، اللتين ان لم تذهبا للتعفن وهما في الحياة بزنزانة في دير فلأنهما كانتا تحملان تلك الزنزانة بداخلهما.

الدكتور اوربينو المستسلم لدفع ضريبة اصله النبيل، صمّ اذنيه عن رجائها، موقناً ان حكمة الله وقدرة الزوجة اللانهائية على التأقلم كفيلان بوضع الأمور في نصابها. كان حزيناً لانهيار أمه، بعد ان كان حبها للحياة في زمن آخر يبث الرغبة بالحياة حتى في اعتى الكفرة. هذا صحيح: فتلك المرأة الجميلة، الذكية، ذات الحساسية الانسانية التي لا مثيل لها في وسطها، كانت خلال مايقرب من اربعين سنة روح وجسد فردوسها الاجتماعي، الى ان اذاقها الترمل المرارة حتى استحال التعرف عليها، وجعلها مترهلة وساخطة، ومعادية للدنيا. والتفسير الوحيد لتخليها عن مكانتها الاجتماعية كان في غضبها على زوجها الذي ضحى بحياته وهو واع في سبيل كومة من الزنوج، كما كانت تقول، في حين ان التضحية الوحيدة العادلة هي نجاته من الموت في سبيلها. ولقد استمر زواج فيرمينا داثا السعيد على أية حال ما دامته رحلة الزفاف، والشخص الوحيد القادر على مساعدتها في منع الانهيار النهائي يشله الخوف أمام تسلط الأم. وعليه، وليس على شقيقتي زوجها المعتوهتين وحماتها نصف المخبولة، كانت فيرمينا داثا تلقي مسؤولية وقوعها في مصيدة الموت تلك. وبدأت تشك بعد فوات الأوان بان الرجل الذي تزوجت منه يخفي وراء جبروته المهني وسحره

الدنيوي شخصاً ضعيفاً بلا خلاص.. شيطاناً بائساً يتغطرس بوزن القابه الاجتماعي.

لجأت حينئذ الى الابن حديث الولادة. كانت قد أحست عند خروجه من جسدها براحة التحرر من شيء ليس منها، وعانت الهول من نفسها حين رأت انها لاتشعر بأدنى عاطفة تجاه عجل البطن ذاك الذي عرضته عليها القابلة وهو عار تماماً، وملوث بالدهن والدم، وحبل الخلاص ملتف حول عنقه. لكنها تعلمت في عزلة القصر التعرف عليه، فتعارفا، واكتشفت بفرح شديد ان حب الأولاد ليس نابعاً من كونهم ابناء، وانما منشأه صداقة التربية. وأصبحت لا تطيق شيئاً ولا أحداً سواه في بيت محنتها. كان الحزن يقل عليها، وكذلك الحديقة المأتمية، وترهل الزمن في الحجرات الفسيحة التي لا نوافذ لها. أحست بالجنون في الليالي المتطاولة بصراخ المجنونات في مشفى الامراض العقلية المجاور. وكانت تُخجلها عادة اعداد مائدة الولائم كل يوم، بشراشف مطرزة، وأدوات طعام فضية وشمعدانات مأتمية، لخمسة أشباح يتعشون فنجان قهوة بالحليب وشطائر الدقيق بالجبن. مقتت صلوات الظهيرة، والتكلف على المائدة، والانتقادات المتوالية لطريقتها بامساك أدوات الطعام، ومشيتها بهذه الخطوات المستخفة كخطوات امرأة من الشارع، ولارتدائها ملابس كملابس السيرك، بل ولاسلوبها القروي في معاملة زوجها وارضاع طفلها دون تغطية ثديها بدثار الرضاعة. وعندما وجهت الدعوات الأولى لتناول الشاي في الساعة الخامسة مساء، مع بسكويت امبراطوري وحلوى زهور، تماشياً مع عادة محدثة في انكلترا، عارضت دونيا بلانكا لانه لا يمكن تناول المشروبات الطبية المستخدمة للتعرق عند الحمى في بيتها بدلاً من الشوكولاته مع الجبن وأقراص خبز اليكة. ولم تفلت منها حتى الاحلام. ففي صباح أحد الأيام روت فيرمينا داثا انها رأت في الحلم رجلاً مجهولاً يمضي عاريا ويرش حفنات من الرماد في صالات القصر، فقاطعتها دونيا بلانكا بجفاء:

ـ لايمكن لامرأة محتشمة ان تحلم هذا النوع من الأحلام.

وإلى احساسها بانها تعيش في بيت غريب أضيفت نكبتان كبريان. احدهما طبق الباذنجان اليومي بجميع اشكاله، والذي كانت دونيا بلانكا ترفض استبداله احتراماً للزوج الميت، بينما ترفض فيرمينا داثا أكله بأي حال. كانت تمقت الباذنجان منذ طفولتها، وقبل ان تتذوقه، لانه بدا لها دوماً بلون السمّ. ولكن لا بد لها من القبول على كل حال بان شيئاً من اعتقادها قد تبدل، وكان في صالح حياتها. فقد قالت وهي في الخامسة من عمرها ما كانت تقوله دوماً على المائدة، فأجبرها أبوها على أكل طنجرة كاملة كانت معدة لستة أشخاص. ظنت انها ستموت، بسبب قيء الباذنجان المهروس أولاً، ثم بسبب فنجان زيت الخروع الذي اجبروها على تناوله لمعالجتها من العقاب. وقد بقي الباذنجان وزيت الخروع مختلطان

في ذاكرتها على انها مُسهل، سواء بطعمها أوبرعب السم، واثناء وجبات الغذاء الفظيعة في قصر المركيز دي كاسالدويرو كانت تضطر لصرف نظرها حتى لا تستعيد ذكرى الغثيان الجليدي لزيت الخروع.

وكانت النكبة الثانية هي القيثارة. ففي أحد الأيام قالت دونيا بلانكا وهي تعني تماماً ما تقوله: «لا أؤمن بوجود نساء محترمات لا يتقن العزف على البيانو». كانت تُصدر بذلك أمراً مما دفع ابنها لمجادلتها. فأفضل سنوات حياته امضاها سجيناً في دروس البيانو، رغم انه حمد ذلك في رشده. لكنه لم يكن قادراً على تصور زوجته ذات الخمسة والعشرين عاماً والطبع الحاد، خاضعة إلى العقوبة ذاتها. فكان ما ناله من الألم هو موافقتها على استبدال البيانو بالقيثارة، بذريعة صبيانية تقول انها الاداة الموسيقية التي يستخدمها الملائكة. وهكذا جلبوا من فيينا القيثارة الرائعة، التي بدت وكأنها من الذهب، وكانت أنغامها تصدح وكأنها كذلك فعلاً، والتي صارت فيما بعد أحد ابرز مقتنيات متحف المدينة، إلى ان التهمتها النيران مع كل ما كان فيه. خضعت فيرمينا دائما الى عقوبة الرفاهية هذه محاولة وقف الانهيار بتضحية اخيرة. بدأت الدروس مع معلم معلمين أحضروه خصيصاً من مدينة مومبوكس، فمات فجأة بعد خمسة عشر يوماً من مجيئه، وتابعت الدروس لعدة سنوات مع موسيقي الدير، الذي كانت روحه الجنائزية تشوه موسيقاه القيثارية.

لقد فوجئت هي نفسها لانصياعها. فمع انها ماكانت تقبل ذلك في قرارة نفسها، ولا في مجادلاتها الصماء مع زوجها خلال الساعات التي كانا يكرسانها للحب من قبل، الا انها تورطت باسرع مما كانت تظن في شبكة تقاليد عالمها الجديد ومكائده. كانت تردد أول الأمر عبارة طقسية لتؤكد حرية رأيها: «إلى الجحيم أيتها المروحة فهذا وقت النسيم». ولكنها ما لبثت ان تحمست لامتيازاتها التي احسنت كسبها، وخافت من الخزي والسخرية، فأبدت استعدادها لاحتمال كل شيء، حتى المذلة، على أمل ان يعطف الله اخيراً على دونيا بلانكا، التي لم تكن تمل دعوته في صلواتها بان يبعث اليها الموت.

كان الدكتور اوربينو يبرر ضعفه بذرائع واهية، حتى دون ان يتساءل ان لم يكن يعارض بذلك تعاليم كنيسته. فهو لا يوافق على ان منشأ الخلافات مع زوجته هو جو البيت المفكك، وانما في طبيعة الزواج بحد ذاته. انه ادعاء سخيف لا وجود له إلا في بركات الله اللانهائية، يتناقض مع اي سبب علمي في ان شخصين لا يكادان يعرفان بعضهما، ولا تربطهما أية صلة قربى، مختلفي الطبائع والثقافة، بل ومختلفي الجنس أيضاً وجدا نفسيهما ملزمين فجأة بالعيش معاً، والنوم في السرير نفسه والمشاركة في مصيرين ربما كانا مقررين في اتجاهين مختلفين. كان يقول: «مشكلة الزواج هي انه ينتهي كل ليلة بعد ممارسة الحب، ولا بد من العودة إلى بنائه كل صباح قبل تناول الفطور». أما زواجهما، كما يقول، القائم بين طبقتين متناحرتين، في مدينة ما زالت تحلم بعودة الحكام الاستعماريين، فالملاط الوحيد القادر على حفظ تماسكه هو شيء صعب ومتقلب كالحب، ان كان له من وجود، وفي حالتهما لم يكن له وجود عند زواجهما، ولم يفعل القدر شيئاً سوى جعلهما يواجهان الواقع حين كانا على وشك اختراع الحب.

هكذا كانت حياتها في مرحلة القيثارة. لقد تراجعت المصادفات السعيدة حين كانت تدخل عليه وهو يستحم، ورغم المجادلات، والباذنجان السام، ورغم الشقيقتين المعتوهتين والأم التي انجبتهما، كان لديه ما يكفي من الحب ليطلب منها ان تليّفه. فتبدأ عمل ذلك مستعينة بفتات الحب الذي بقي لديها من اوروبا، ثم يتيح كلاهما للذكريات ان تخدعهما، متحدثين دون ان يشاءا، وراغبين دون ان يقولا، وينتهيان إلى الموت حباً على الأرض، ملوثين بالرغوة المعطرة، فيما هما يسمعان الخادمات تتحدثن عنهما في حجرة الغسيل: «اذا كانا لاينجبان أولاداً فلأنهما لا يشدان». وبين الفينة والاخرى. ولدى عودتهما من احدى الحفلات المحلية، كان الشوق القابع وراء الباب يطرحهما بضربة من مخالبه، فيحدث حينئذ انفجار رائع يعود كل شيء اثناءه إلى ماكان عليه من قبل، ويعودان خلال خمس دقائق ليكونا العاشقين المتيمين كما كانا في شهر العسل.

وباستثناء هذه الفرص النادرة، فان احدهما كان يشعر بالارهاق اكثر من الاخر عند موعد النوم. وكانت هي تتأخر في الحمام لتلف سجائرها بأوراق معطرة، وتدخن وحدها، ممارسة من جديد غرامياتها المواسية كما كانت تفعل وهي فتية وحرة في بيتها، حين كانت سيدة وحيدة على جسدها. ثم انها صارت تعاني من آلام رأس دائمة، اوتشعر بالحر الخانق دوماً، أو تتصنع النوم، أو تدعي انها في العادة الشهرية ثانية، العادة الشهرية، ودائماً العادة الشهرية. لدرجة ان الدكتور اوربينو تجرأ على القول في أحد دروسه، لمجرد التفريج عن نفسه من اختناق لايعترف به ان العادة الشهرية بعد عشر سنوات من الزواج، تأتي النساء حتى ثلاث مرات في الاسبوع.

نكبات تضاف إلى نكبات، وعلى فيرمينا دائما ان تواجه في أسوأ سني حياتها ما كان سيحدث عاجلاً أم آجلاً دون مفر: حقيقة تجارة ابيها السحرية والتي لم تعرفها أبداً. لقد حدد حاكم الولاية موعداً في مكتبه للدكتور خوفينال اوربينو ليطلعه على سوء سلوك حماه، وقد اختصر تلك المساوىء في جملة واحدة: «لايوجد قانون الهي أو بشري يوضح كيف امكن لهذا الرجل ان يتقدم». لقد قام ببعض اخطر عملياته مُستظلاً بسلطة صهره. وكان يصعب التفكير بان هذا الاخير وزوجته ليسا مطلعين على نشاطاته. ولمعرفة الدكتور اوربينو بان

السمعة الوحيدة القادرة على حماية حماه هي سمعته بالذات، لانها الوحيدة التي ما زالت واقفة على قدميها، فقد وضع كل ثقل سلطته، وتمكن من لفلفة الفضيحة بكلمة شرف منه. وهكذا كان على لورينثو داثا ان يغادر البلاد على أول سفينة وألا يعود أبداً. عاد إلى موطنه الاصلي كما لو كان في رحلة من تلك الرحلات التي يقوم بها المرء بين الحين والآخر لخداع حنينه، وفي أعماق هذا الظاهر كان يوجد شيء من الحقيقة: فمنذ زمن وهو يصعد إلى السفن القادمة من وطنه ليتناول كأس ماء من خزانات التموين المملوءة من ينابيع مسقط رأسه. لقد مضى دون حاجة للي ذارعه، مصرحاً ببراءته، ومحاولاً اقناع صهره بانه وقع ضحية مؤامرة سياسية. مضى وهو يبكي على الطفلة، كما كان يسمي فيرمينا داثا مذ تزوجت، ويبكي فراق حفيده والأرض التي عرف فوقها الثراء والحرية، والتي استطاع ان يحقق فوقها مأثرة تحويل ابنته إلى سيدة مجتمع راقية معتمداً على صفقات غامضة. مضى هرماً ومريضاً، لكنه عاش بعد ذلك زمناً أطول مما تمناه أي من ضحاياه. ولم تستطع فيرمينا داثا قهر تنهدة الراحة حين وصلها خبر موته، ولم تحدّ عليه منعاً لاثارة التساؤلات، لكنها بكت طوال شهور عديدة بغضب أصم دون ان تدري السبب حين كانت تحبس نفسها للتدخين في الحمام، وكان انها تبكيه.

أسخف ما في وضعهما ان السعادة لم تبد عليهما يوماً في الاماكن العامة كما كانت تبدو في سنوات المحنة تلك. لقد كانت في الواقع سنوات انتصاراتهما الكبرى على عداوات وسطهما الخفية، الوسط الذي ما كان ليتنازل بقبولهما كما هما: مختلفين ومجددين، ومخالفين بالتالي للتقاليد القائمة. ومع ذلك. فقد كان هذا هو الجزء السهل بالنسبة لفيرمينا داثا. فحياة المجتمع، التي كانت تُخيفها كثيراً قبل ان تعرفها. لم تكن اكثر من مجموعة من التحالفات المتوارثة، والطقوس التافهة المبتذلة، والكلمات الجاهزة، التي يسلي بها بعض أهل المجتمع بعضهم الآخر كي لا يغتالوا بعضهم. ان السمة السائدة في فردوس التفاهة هذا هي الخوف من المجهول. وقد حددت فيرمينا داثا ذلك بطريقة اكثر بساطة: «مشكلة الحياة العامة هي في تعلم السيطرة على الرعب، ومشكلة الحياة الزوجية هي في تعلم السيطرة على الضجر». اكتشفت ذلك فجأة بوضوح مذ دخلت وهي تجر اذيال فستان الزفاف اللانهائية إلى النادي الاجتماعي، العابق بروائح كل تلك الزهور المتنوعة، وبريق الفالسات، وصخب الرجال المتعرقين والنساء المرتعشات اللواتي رمقنها دون ان يدرين حتى ذلك الحين كيف سيواجهن ذلك التهديد المبهر الذي قذفهم به العالم الخارجي. كانت قد اتمت احدى وعشرين سنة من عمرها دون ان تخرج من بيتها إلا إلى المدرسة، لكن جولة واحدة من نظرها كانت كافية لتدرك ان خصومها ليسوا متكمشين حقداً وانما هم مشلولون خوفاً. وبدلاً من أن تبعث فيهم

مزيداً من الرعب، مثلما تعاني، أحسنت اليهم بمساعدتهم على التعرف اليها. ولم يختلف أحد من الحضور عما ارادت له ان يكون، تماماً كما يحدث لها مع المدن، التي لا تبدو لها أفضل أو أسوأ من سواها، وانما كما رسمتها هي في قلبها. فباريس، ورغم مطرها الازلي، وبائعيها البخلاء، ورغم هذر حوذييها الهوميريّ، ستتذكرها دوماً كأجمل مدينة في العالم، لا لانها كذلك أو ليست كذلك في الواقع، وانما لانها ارتبطت بحنينها إلى أسعد سنوات حياتها. أما الدكتور اوربينو، فقد واجه المجتمع بأسلحة كتلك التي شهدت ضده، والفارق الوحيد انه استخدمها بذكاء أشد، وبوقار محسوب. لم يكن يحدث شيء دون وجودهما: النزهات التمدنية، مهرجانات الزهور، الاحداث الفنية، اليانصيبات الخيرية، الاحتفالات الوطنية، الرحلة الأولى بالمنطاد. لقد كان لهما دور في كل شيء، وغالباً ما كان دورهما هو الاساس والمقدمة. ما كان لأحد ان يتصور في سنوات محنتهما، انه يمكن ان يكون هناك من هو أشد سعادة منهما أو من ينعم بزواج اكثر انسجاماً من زواجهما.

البيت الذي هجره الأب، منح فيرمينا داثا ملجأ خاصاً بديلاً للاختناق في القصر العائلي. فكانت ما ان تفلت من الانظار العامة حتى تمضي خفية إلى حديقة البشارة، لتستقبل هناك صديقاتها الجديدات وبعض صديقاتها القديمات من أيام المدرسة أو دروس الرسم: بديل بريء للخيانة. كانت تعيش هناك ساعات هادئة كأم عزباء، مستحضرة ذكريات الطفولة الكثيرة التي ما زالت في ذاكرتها. أعادت شراء الغربان العطرة، والتقطت قططاً من الشارع ووضعتها تحت عناية غالا بلاثيديا، التي صارت عجوزاً واصابها الروماتيزم بما يشبه الكساح، لكنها بقيت تحتفظ بالحماس لبعث الحياة في البيت من جديد. أعادت فتح حجرة الخياطة حيث رآها فلورينتينو اريثا لأول مرة، وحيث طلب منها الدكتور خوفينال اوربينو ان تُخرج لسانها محاولاً بذلك التعرف على قلبها، وحولتها إلى هيكل مقدس لذكريات الماضي. وحين مضت لتغلق نافذة الشرفة في مساء يوم شتوي، قبل ان تحطم العاصفة الزجاج رأت فلورينتينو اريثا على مقعده تحت اشجار لوز الحديقة، ببدلة ابيه المقيفة على مقاسه والكتاب المفتوح في حضنه، لكنها لم تره كما كانت تراه كثيراً في تلك الايام، وانما رأته بسنه التي تحفظها في ذاكرتها. وخشيت ان تكون تلك الرؤيا نذيراً بموته، وتألمت لذلك. وتجرأت على القول لنفسها بانها ربما كانت اسعد حالاً لو أنها تزوجته.. لو كانت وحيدة معه في ذلك البيت الذي رممته من اجله بكثير من الحب كما رمم بيته من اجلها، لكن مجرد الافتراض ارعبها، لانه أتاح لها ان ترى درك التعاسة الذي وصلت اليه. فاستجمعت عندئذ آخر قواها واجبرت زوجها على مناقشتها دون مراوغة، أجبرته على مواجهتها، على مشاجرتها، على البكاء معها قهراً لفقدانهما الفردوس، الى ان سمعا صياح آخر الديكة، ونفذ الضوء من بين تخاريم

القصر، واشتعلت الشمس، ووقف الزوج المتورم لكثرة ما تكلم، والمنهك من النعاس، بقلبه المتصلب لكثرة ما بكى، شدّ رباط حذائه، وشدّ حزامه، وشد كل ما تبقى له من الرجولة، وقال لها نعم يا حبي، وقال انهما سيمضيان للبحث عن الحب الذي فقداه في اوروبا: غداً بالذات وإلى الأبد. كان قراراً حاسماً لدرجة انه اتفق مع بنك دي تيسورو، وكيل اعماله العالمي، على التصفية الفورية للارث العائلي الواسع، المبعثر منذ تكوينه في جميع أنواع الاعمال التجارية، والاستثمارات والاوراق المقدسة والبطيئة، والذي لم يكن يعلم عنه علم اليقين إلا انه لا يصل إلى المقادير المبالغ بها التي تدعيها الاساطير: ما يكفي لتصفيته وعدم التفكير فيه. وطلب من البنك تحويل المبلغ، مهما كان، إلى ذهب مختوم وايداعه في البنوك التي يتعامل معها في الخارج، حتى لا يبقى له ولزوجته في هذا الوطن القاسي شبرٌ من الأرض يموتان فيه.

كان فلورينتينو اريثا ما يزال حياً، على عكس ما ظنت. وكان يقف على رصيف الميناء حيث ترسو عابرة المحيطات الذاهبة إلى فرنسا حين وصلت مع زوجها وابنها في عربة الجوادين الذهبيين، ورآهما ينزلان مثلما رآهما يفعلان ذلك مرات ومرات في الاحتفالات العامة: كانا على أحسن حال. وكان معهما ابنهما، الذي رُبّي بطريقة تشي بما سيصيره في المستقبل.. مثلما صار تماماً. حيا خوفينال اوربينو فلورينتينو اريثا تحية مرحة بقبعته: «اننا ماضون لغزو بلاد الفلاند». حيته فيرمينا داثا بانحناءة من رأسها، فرفع فلورينتينو اريثا قبعته وحياها بحني رأسه انحناءة خفيفة، ودققت فيه دون ان تظهر عليها امارات الشفقة لصلعه المبكر. انه هو، تماماً كما تراه: طيف شخص لم تعرفه أبداً.

لم يكن فلورينتينو اريثا على أحسن حال كذلك. فالعمل المتزايد يوماً بعد يوم، وتخمته كصياد متوحد، وخمود همته بفعل السنين، كانت تثقل عليه. ثم اضيفت إلى ذلك كله أزمة ترانسيتو اريثا الاخيرة، التي اصبحت ذاكرتها دون ذكريات: صفحة بيضاء تقريباً. حتى انها كانت تلتفت اليه احياناً، فتراه يقرأ على الكرسي الذي اعتاد الجلوس عليه، فتسأله متفاجئة: «ابن من أنت؟». وكان يجيبها دائما يقول الحقيقة، لكنها كانت تقاطعه في الحال متسائلة:

- قل لي يا بني: وأنا من اكون؟

كانت قد وصلت الى حد من السمنة جعلها عاجزة عن الحركة فصارت تمضي النهار في دكان الخردوات الذي لم يعد فيه شيء للبيع، وهي تتزين منذ استيقاظها مع أول الدبكة حتى فجر اليوم التالي، لان ساعات نومها أصبحت قليلة جداً. كانت تضع على رأسها اكاليل زهور، وتصبغ شفتيها. وترش البودرة على وجهها وذراعيها، ثم تسأل من يكون معها كيف يراها. وكان جميع الجيران يعرفون انها تنتظر الاجابة نفسها دوماً: «انك الصرصارة

مارتينث». هذه الهوية، المتحلة من شخصية قصة للاطفال، هي الوحيدة التي كانت تريحها. فتتابع الهز على الكرسي الهزاز، والتهوية بباقة من الريش الوردي الطويل، الى ان تعود لتبدأ من جديد: اكليل الزهور الورقية، المسك على الجفون، الاحمر القاني على الشفاه، وطبقة البياض على الوجه. والسؤال ثانية لمن هو قريب منها: «كيف تراني؟». وعندما تحولت الى ملكة السخرية بين الجوار، عمد فلورينتينو اريثا في احدى الليالي الى تفكيك منضدة دكان الخردوات القديمة وخزائنها، وأغلق الباب المطل على الشارع، وأعد المكان على الشكل الذي سمعها تصف فيه مخدع الصرصارة مارتينث، ومنذ ذلك الحين لم تعد تسأل من هي.

وبناء على نصيحة من العم ليون الثاني عشر، بحث لها عن امرأة مسنة تتولى شؤونها، لكن المرأة المسكينة كانت تسير وهي شبه نائمة، حتى ان المرء يشعر احيانا بانها نسيت كذلك من تكون. وهكذا كان فلورينتينو اريثا يبقى في البيت منذ خروجه من المكتب الى ان يتمكن من تنويم امه. لم يعد يلعب الدومينو في النادي التجاري، وتوقف لوقت طويل عن لقاء القلة من صديقاته القديمات اللواتي كان يتردد عليهن، ذلك ان تبدلا عميقاً طرأ على قلبه بعد لقائه المرعب مع اوليمبيا زوليتا.

كان لقاء صاعقا. فبعد ان أوصل فلورينتينو اريثا العم ليون الثاني عشر الى بيته، اثناء عاصفة من عواصف تشرين الاول التي لا تترك للمرء لحظة راحة، رأى وهو في العربة فتاة ضئيلة ورشيقة، ترتدي فستانا مزينا بالكشاكش يبدو اشبه بفستان زفاف. رآها تركض مرتبكة من جانب الى اخر، لأن الريح انتزعت منها مظلتها وطارت بها الى البحر. فحملها في عربته وانحرف عن طريقه ليوصلها الى بيتها، الذي كان اشبه بصومعة مقابل البحر الفسيح، وكان فناء البيت مليئا بأعشاش حمام تظهر من الشارع. وروت له في الطريق بانها تزوجت منذ أقل من سنة من تاجر خزفيات كان فلورينتينو اريثا قد رآه كثيرا في سفن شركته. حين كان يفرغ من السفن صناديق تحتوي جميع انواع الخزفيات ليبيعها في السوق، وبرفقته عالم من الحمائم في قفص خيزراني من تلك الاقفاص التي تستخدمها الامهات لحمل اطفالهن حديثي الولادة في السفن النهرية. كان يبدو على اوليمبيا زوليتا انها تنتمي الى فصيلة الزنابير، ليس بسبب وركيها المرتفعين وصدرها الضامر وحسب، وانما لكل ما فيها: شعرها الذي كاسلاك النحاس، وكلف الشمس في وجهها، وعيناها المستديرتان والمتقدتان والبعيدتان عن بعضهما اكثر مما يجب. ثم انها لا تتحدث عندما تشعر بالألفة الا لتقول امورا ذكية وممتعة. لقد بدت لفلورينتينو اريثا ظريفة اكثر من كونها جذابة، ونسيها حالما أوصلها الى بيتها، حيث كانت تعيش مع زوجها، ووالد هذا الزوج واعضاء اخرين من العائلة

وبعد مرور عدة أيام، رأى الزوج في الميناء وهو يشحن سفينة بالبضائع بدلا من انزالها منها كعادته، وعندما أبحر المركب، سمع فلورينتينو اريثا صوت الشيطان واضحا في اذنيه. وفي مساء ذلك اليوم، بعد ان أوصل العم ليون الثاني عشر، مر كما لو كان مروره مصادفة، مقابل بيت اوليمبيا زوليتا، ورأها فوق السياج تقدم الطعام للحمائم المائجة. فصاح بها من العربة قائلا: «ما ثمن الحمامة؟». تعرفت عليه واجابته بصوت مرح: «ليست الحمائم للبيع».
فسألها: «ماذا عليّ ان أفعل لأحصل على واحدة؟» ودون ان تتوقف عن نثر الطعام للحمام، ردت عليه: «عليك ان توصل صاحبة الحمام بالعربة حين تجدها ضائعة تحت المطر». وهكذا عاد فلورينتينو اريثا الى بيته تلك الليلة حاملا هدية شكر من اوليمبيا زوليتا: حمامة زاجل في قائمتها خاتم معدني.

في مساء اليوم التالي، وفي ساعة تقديم الطعام للحمام تماما، رأت راعية الحمام الجميلة الحمامة المهداة عائدة الى عشها، ففكرت بانها قد افلتت. ولكنها حين امسكتها لتتفحصها رأت انها تحمل قصاصة ورقية مطوية في الخاتم: تصريح حب. كانت تلك هي المرة الاولى التي يترك فيها فلورينتينو اريثا اثراً مكتوبا، لكنها لن تكون الاخيرة، رغم انه كان من الفطنة في هذه المناسبة بحيث لم يضع توقيعه على الورقة. واثناء عودته الى منزله في مساء اليوم التالي، الاربعاء سلمه طفل من الشارع الحمامة نفسها في قفص، مع رسالة بان سيدة الحمائم تبعث لك هذا وتقول لك ان تتفضل بالحفاظ عليها جيدا في القفص المقفل، لانها ستفلت منك ثانية ان لم تفعل، ولن نعيدها اليك بعد هذه المرة. ما كان يعرف كيف يفهم الرسالة: فاما ان الحمامة قد اضاعت رسالته في الطريق، واما ان راعية الحمام قررت التظاهر بالحماقة، أو انها ارسلت الحمامة ليعيدها اليها ثانية. ولكن الطبيعي في هذه الحالة الاخيرة ان تبعث الحمامة مع رد منها.

وفي صباح يوم السبت، وبعد تفكير مطول، بعث فلورنتينو اريثا الحمامة من جديد مع رسالة اخرى دون توقيع. ولم يكن عليه ان ينتظر هذه المرة حتى اليوم التالي. ففي المساء، اتاه الصبي نفسه حاملا الحمامة في قفص آخر، ورسالة شفوية بانها تعيد اليه ثانية الحمامة التي عادت لتفلت منه، وانها قد اعادتها أمس الأول بدافع حسن التربية وتعيدها هذه المرة اشفاقا، ولكنها تقول الحقيقة الان بانها لن تعيدها اذا ما افلتت منه. لهت ترنسيتو اريثا بالحمامة حتى وقت متأخر، فأخرجتها من القفص، وهدلت لها وهي تحملها بين ذراعيها، محاولة تنويمها بأغنيات أطفال، وفجأة لاحظت ان في خاتمها وريقة كتب عليها سطر واحد: لا اقبل رسائل مغفلة. قرأه فلورينتينو اريثا بقلب فاقد للوعي، وكأنه في ذروة مغامرته الاولى، ولم يكد يغفو في تلك الليلة، الا ليعاني فقدان الصبر في احلامه. وفي صباح اليوم

التالي، وقبل ذهابه الى المكتب، اطلق الحمامة ثانية بعد ان حملها رسالة حب وقع عليها اسمه بحروف واضحة تماما، ووضع لها في الخاتم ايضا احدث وردة متفتحة في حديقته، واكثرها حيوية وشذى.

لم يكن الامر سهلا معها. فبعد ثلاثة شهور من الحصار، واصلت راعية الحمام الرد بالاجابة ذاتها «لست من هؤلاء». ولكنها لم ترفض ابدا تلقي الرسائل أو المجيء الى المواعيد التي كان يرتبها فلورينتينو اريثا بحيث تبدو لقاءات مصادفة. لقد كان معتاداً على التخفي: انه العاشق الذي لا يظهر وجهه ابداً، وهو اكبر طماع في الحب والاشد بخلا فيه في الحين ذاته.. من لا يمنح شيئا ويريد كل شيء، من لا يتيح لاحد ترك ادنى اثر في قلبه، هذا الصياد المنزوي خرج من مخبئه والقى بنفسه الى عرض الطريق في نوبة احتدام رسائل موقعة، وهدايا غزل، وطواف مستهتر حول بيت راعية الحمام، بل انه جال حول البيت في مناسبتين لم يكن الزوج فيهما مسافراً كما لم يكن في السوق. انها المرة الاولى، منذ زمن حبه الاول، التي احس فيها بان نصلا يخترقه.

بعد ستة شهور على لقائهما الاول، التقيا اخيراً في قمرة سفينة كان يجري اصلاحها وطلاؤها في الميناء النهري. كان مساء رائعاً. وكانت اوليمبيا زوليتا تتمتع بحب طويل، حب راعية حمام طائشة، وتهوى البقاء عارية لعدة ساعات، في راحة مسترخية هي بالنسبة لها حب كالحب. كانت القمرة منزوعة الطلاء، وقد أعيد طلاء نصفها تقريبا، وكانت رائحة التربنتين ملائمة للاحتفاظ بها كذكرى من مساء لطيف. وفجأة، وبالحاح وحي فريد، نزع فلورينتينو اريثا غطاء علبة دهان أحمر كانت قريبة من السرير، وغمس اصبعه السبابة فيها، ورسم على عانة راعية الحمام الجميلة سهما داميا مصوبا نحو الجنوب، ثم كتب على بطنها عبارة: هذه اليمامة لي. وفي تلك الليلة بالذات، تعرت اوليمبيا زوليتا امام زوجها دون ان تتذكر الاعلان المكتوب على بطنها، ولم ينطق الزوج بأية كلمة، بل ان ايقاع انفاسه لم يتبدل لا شيء.. لكنه مضى الى الحمام وتناول موس الحلاقة فيما كانت ترتدي قميص نومها، وذبحها بضربة واحدة.

لم يعلم فلورينتينو اريثا بالحدث الا بعد عدة أيام، حين ألقي القبض على الزوج الهارب وروى للصحف أسباب الجريمة وكيفية تنفيذها. وقد انشغل خلال سنوات بالتفكير في رسائله الموقعة، وراح يحسب سنوات سجن القاتل الذي كان يعرفه جيدا لتجارته التي ينقلها في السفن، لكنه لم يكن يخشى ضربة موس حلاقة في العنق، ولا الفضيحة العامة، بقدر ما كان يخشى حظه العاثر اذا ما علمت فيرمينا داثا بخيانته. وفي أحد ايام سنوات الانتظار، تأخرت المرأة القائمة على رعاية ترانسيتو اريثا في السوق، بسبب مطر غزير في غير اوانه، وحين

رجعت الى البيت وجدتها ميتة . كانت تجلس على الكرسي الهزاز، مزينة ومزهرة كعادتها، وكانت عيناها متقدتين وعلى شفتيها ابتسامة خبث شديد بحيث لم تنتبه حارستها الى انها ميتة الا بعد ساعتين . وكانت قبل موتها بقليل قد وزعت على اطفال الحي ثروتها من الذهب والمجوهرات المدفونة تحت السرير، قائلة لهم انهم يستطيعون اكلها كقطع الحلوى، ولم يكن ممكنا استعادة بعض القطع الثمينة . دفنها فلورينتينو اريثا في مزرعة لامانودي ديوس القديمة ، التي مازالت تعرف باسم مقبرة الكوليرا ، وزرع على قبرها شجيرة ورد.

ومنذ زيارته الاولى للمقبرة . اكتشف فلورينتينو اريثا ان اوليمبيا زوليتا كانت مدفونة قريبا من امه ، في قبر بلا شاهدة ، لكن اسمها وتاريخ موتها كانا مكتوبين بالاصبع على اسمنت القبر الطري ، وفكر مذعوراً بان تلك الكتابة هي سخرية دموية من الزوج . وعندما ازهرت شجيرة الورد، كان يضع وردة على قبرها، ان لم يكن هناك من يراه، ثم انه زرع لها فيما بعد جفنة قطعها من شجيرة امه . كانت شجيرتا الورد تنموان بسرعة هائلة ، مما جعل فلورينتنو اريثا يضطر الى حمل مقص التشذيب وغيره من ادوات الحديقة للحفاظ على الشجرتين ضمن حدود معقولة . لكن نموهما كان اكبر من قواه . وبعد عدة سنوات كانت الشجيرتان قد امتدتا كحرج ما بين القبور، فصارت مقبرة الوباء الطيبة تعرف منذ ذلك الحين باسم مقبرة الورود، الى ان جاء عمدة أقل واقعية من الحكمة الشعبية ، فانتزع شجيرات الورد في احدى الليالي، وعلق لوحة جمهورية فوق قنطرة المدخل : **المقبرة الكونية** .

لقد حكم موت الام على فلورنيتينو اريثا بالعودة الى ديدنه السابق : المكتب، واللقاءات المتناوبة مع عشيقاته المزمنات ، ولعب الدومينو في النادي التجاري ، وقراءة كتب الحب نفسها ، وزيارة المقبرة في أيام الاحاد . انه صدأ الروتين، الذي كثيرا ما كان محط قذف ومبعث خوف ، لكنه حماه من الاحساس بتقدمه في السن . ومع ذلك، ففي يوم أحد من أيام كانون الثاني ، حين كانت شجيرات الورد قد انتصرت على مقص التشذيب ، رأى سنونوة على اسلاك النور التي نصبت حديثا ، فأدرك فجأة كم من الوقت مضى على موت أمه ، وكم مضى على مقتل اوليمبيا زوليتا ، وكم مضى ايضا على ذلك المساء الآخر من شهر كانون الاول البعيد حين بعثت فيرمينا داثا رسالة تقول فيها أجل، انها ستحبه الى الابد . كان يتصرف حتى ذلك الحين وكأن الزمن لا يتقدم بالنسبة له وانما بالنسبة للآخرين فقط . ففي الاسبوع الماضي تقريبا التقى في الشارع بزوجين من اولئك الكثيرين الذين تزوجوا بفضل رسائله السرية ، ولم يستطع ان يتعرف على الابن الاكبر الذي كان هو نفسه عرابه . وقد تخلص من الحرج بالعبارة التقليدية : «ياالله! ها قد أصبح رجلاً!» . وحتى حين أصبح جسده يبعث اليه بأول اشارات الانذار، استمر على هذا الحال، لانه احتفظ دوماً بعافية

كالصخر في مواجهة الامراض . وقد اعتادت ترانسيتو اريثا القول : «المرض الوحيد الذي اصاب ابني هو الكوليرا» . خالطة الكوليرا بالحب طبعاً، وذلك قبل ان تختلط ذاكرتها بمزمن طويل . ولكنها كانت مخطئة على اي حال، لان ابنها اصيب سراً بست حالات من السيلان الابيض، رغم ان الطبيب كان يقول بانها ليست ست حالات، وانما حالة واحدة وحيدة تعود للظهور بعد كل معركة خاسرة . كما اصيب بخراج، وبأربع حالات من عرف الديك وست اصابات بالبثور، ولكن لم يكن ليخطر بباله أو ببال أي رجل آخر اعتبار هذه الاصابات امراضاً وانما مجرد تذكارات حرب .

ما كاد يتم الاربعين من العمر حتى اضطر للهرع الى الطبيب شاكيا من آلام غير محددة في عدة مواضع من جسده . وبعد عدة فحوص، قال له الطبيب : «انها امور السن» . لقد كان يعود الى البيت دوماً دون ان يتساءل إن كان لكل هذه الامور علاقة به . فنقطة الارتكاز الوحيدة في ماضيه هي غرامياته البائدة مع فيرمينا داثا، ولم يكن يدخل في حسابات حياته الا ما له علاقة بها . وهكذا وجد نفسه يوم رؤيته طيور السنونو على اسلاك النور يسترجع ماضيه منذ أقدم ذكرياته ، استرجع ذكرى غرامياته العارضة ، والعثرات الكثيرة التي كان عليه اجتيازها للوصول الى موقع رئاسي ، وكذلك الحوادث الكثيرة التي اثارها قراره الملحمي بان تكون فيرمينا داثا له ، وهو لها رغم كل شيء وفوق كل شيء ، وعندها فقط اكتشف ان الحياة تفلت منه . فهزت احشاءه قشعريرة افقدته صوابه ، واضطر لافلات ادوات الحديقة والاستناد الى جدار المقبرة كي لا تطرحه ارضا أول ضربة من مخلب الشيخوخة ، وقال مرتعدا :

- رباه! كل هذا حدث منذ ثلاثين سنة!

أجل ثلاثون سنة مرت كذلك على فيرمينا داثا دون شك، لكنها كانت بالنسبة لها أسعد سنوات حياتها واكثرها حيوية . كانت أيام الرعب في قصر كاسالدويرو قد اهملت في مزبلة الذاكرة . واصبحت تعيش في بيتها الجديد في حي لامانغا ، سيدة كاملة السيادة على مصيرها ، مع زوج عادت تفضله على جمع رجال العالم لو اتيح لها الاختيار من جديد، ومع ابن سيتابع ارث العائلة في مدرسة الطب، وابنة تشبهها تماما عندما كانت هي في مثل سنها، حتى ان احساسها بانها تتكرر من خلالها كان يسبب لها الاضطراب . لقد عادت ثلاث مرات الى اوروبا بعد الرحلة التعيسة حين قررت الا تعود أبدا كي تتخلص من العيش في رعب دائم .

لابد ان الله استجاب اخيراً الى صلوات أحد ما : فبعد سنتين من الاقامة في باريس، وحين بدأت فيرمينا داثا بالبحث مع خوفينال اوربينو عما تبقى لهما من الحب بين الانقاض، وصلتها برقية من برقيات منتصف الليل أيقظتهما بخبر ان دونيا بلانكا دي اوربينو تعاني مرضاً

خطيراً، ثم تلتها برقية ثانية تحمل خبر موتها. رجعا في الحال. ونزلت فيرمينا داثا من السفينة بثوب حداد فضفاض لم يخف اتساعه حالتها: كانت حبلى ثانية بالفعل، وقد كان هذا الخبر منطلقاً لاغنية شعبية تحمل من الخبث اكثر مما تحمله من السوء، وقد شاع منها طوال تلك السنة مقطع يقول: **ما الذي تفعله الجميلة في باريس، ما تكاد تذهب حتى تعود للولادة.** ورغم ابتذال الكلمات، واصل الدكتور خوفينال اوربينو ترديدها لسنوات طويلة في حفلات النادي الاجتماعي كدليل على طيب سريرته.

قصر المركيز دي كاسالدويرو الفخم، الذي لم يعثر مطلقا على خبر مؤكد حول وجوده ومآثره، بيع أولا لدار الخزينة البلدية بسعر مناسب، ثم أعيد بيعه بثروة باهظة فيما بعد للحكومة المركزية، عندما جاء باحث هولندي لاجراء تنقيبات هناك ليثبت وجود الضريح الحقيقي لكريستوف كولومبس: الضريح الرابع. وقد ذهبت شقيقتا الدكتور اوربينو للعيش في دير لاس ساليسياناس، في عزلة بلا نذور، وأقامت فيرمينا داثا في بيت ابيها القديم ريثما ينتهي العمل ببناء البيت في لامانغا. ودخلت اليه بخطى واثقة، دخلت لتأمر وتنهي، ومعها دخل الأثاث الانكليزي الذي احضرته منذ رحلة الزفاف والمكملات التي بعثت بطلبها بعد رحلة المصالحة، وبدأت تملأ البيت منذ يومها الاول فيه بكل انواع الحيوانات الغريبة التي كانت تمضي بنفسها لتشتريها من سفن الانتيل. دخلت الى البيت الجديد مع زوجها المستعاد، مع ابنها اليافع، ومع ابنتها التي ولدت بعد اربعة شهور من عودتها وعمداها باسم اوفيليا. وادرك الدكتور اوربينو من جهته، انه يستحيل عليه استعادة زوجته تماما كما كانت له اثناء رحلة الزفاف، لان الحب الذي أراده منها منحته للطفلين، ولكنه تعلم العيش سعيدا ببقايا الحب. ثم وصلهما الانسجام المرغوب من حيث لم ينتظراه اثناء مأدبة عشاء قدم فيها صنف لذيذ لم تتمكن فيرمينا داثا من تحديد كنهه. فتناولت طبقا لا بأس به، لكن الطعام أعجبها فعادت تسكب طبقا آخر، وتحسرت لان التكلف الاجتماعي لا يسمح لها بسكب طبق ثالث. وعندما علمت بانها انما تناولت بشهية لا شك فيها طبقين من بوريه الباذنجان المطحون، أصبح الباذنجان يقدم في بيت لامانغا بكل اشكاله وبكميات كتلك التي كان يقدم بها في قصر كاسالدويرو، وكان الجميع يأكلونه بشهية، حتى ان الدكتور خوفينال اوربينو صار يمزح في لحظات فراغ الشيخوخة بالقول انه يرغب بانجاب ابنة ليطلق عليها الاسم المحبوب في البيت: باذنجانة اوربينو.

كانت فيرمينا داثا تعرف حينئذ ان الحياة الخاصة متقلبة ومليئة بالمفاجآت، على عكس الحياة العامة. ولم يكن من السهل عليها وضع فوارق حقيقية ما بين الأطفال والبالغين،

ولكنها كانت تفضل الاطفال في نهاية المطاف، لان معاييرهم اكثر صواباً. وما كادت تجتاز منعطف النضوج، متخلصة اخيراً من كل انواع السراب، حتى بدأت ترى خيبة الأمل في انها لم تكن أبداً كما حلمت ان تكون وهي شابة، في حديقة البشارة، وانما اصبحت شيئاً آخر لم تجرؤ على الاعتراف به حتى لنفسها: خادمة مرفهة. لقد توصلت لتصبح سيدة الحياة الاجتماعية المحبوبة، ومحط الاعجاب فيها، لتكون في الوقت ذاته السيدة مرهوبة الجانب. ولكن شيئاً لم يكن يلح عليها بقسوة ولم يكن اقل تهادناً من ادارة شؤون المنزل. لقد أحست دوماً بانها تعيش حياة مكرسة لزوجها: سيدة مطلقة في مملكة السعادة الفسيحة المشادة من اجله، ومن اجله فقط. كانت تعلم انه يحبها فوق كل شيء، يحبها اكثر مما يحب أياً كان في الدنيا، انما يحبها من أجل نفسه فقط: في خدمته المقدسة.

واذا كان هناك ما يعذبها فهو الحكم المؤبد المفروض عليها بتحضير الطعام اليومي. اذ لم يكن الامر يتوقف عند اعداد الطعام في الموعد المحدد، بل لا بد ان يكون كذلك متقناً، وان يحتوي على ما يريد الزوج اكله دون ان تسأله عما يريد. واذا ما سألته يوماً، فان سؤالها سيكون طقساً آخر يضاف إلى طقوس الروتين البيتية التي لا طائل منها، لانه سيرد عليها دون ان يرفع نظره عن الجريدة: «أي شيء». والحقيقة انه كان يقول ذلك، بطريقته اللطيفة، لانه ما كان يستطيع ان يتصور نفسه كزوج أقل استبدادية. لكنه حين يجلس إلى المائدة لا يقبل أي شيء، بل مايريده بالضبط، وبلا ادنى نقصان: فاللحم ليس له مذاق اللحم، والسمك ليس له مذاق السمك، وليس للخنزير طعم الجرب، ولا للفروج مذاق الريش. ثم انه لا بد من وجود الهليون في اي موسم كان، حتى يتاح له الابتهاج لرائحة بوله الشذية. ما كانت تلومه، بل تلقي باللوم على الحياة. لكنه كان صانعاً لا يرحم من صناع الحياة. كانت تكفيه عثرة شك ليزيح الطبق على المائدة قائلاً: «هذا طعام صُنع بلا حب». وكان يصل في هذا المنحى إلى حالات خيالية من الالهام، ففي احد الأيام، تذوق قليلاً من شراب البابونج، ثم أعاد ما شربه بعبارة واحدة: «هذا الشيء له طعم نافذة». وقد فوجئت هي كما فوجئت الخادمات، لأنهن لم يتعرفن يوماً على أحد شرب نافذة مغلية. ولكنهن حين تذوقن الشراب ليفهمن.. فهمن: كان له مذاق نافذة.

لقد كان زوجاً دقيقاً: فهو لم يلتقط اي شيء عن الارض يوماً، كما لم يكن يطفىء النور أو يغلق الباب أبداً. وحين يجد أحد الازرار ناقصاً، في عتمة الفجر، كانت تسمعه يقول: «لابد للمرء من زوجتين، واحدة ليحبها، وواحدة لتخيط له الازرار». وفي كل يوم، عند تناوله أول رشفة من القهوة وأول ملعقة من الحساء الساخن، كان يطلق عواء مؤثرا ما عاد يفزع أحداً، ثم ينطلق بالقول فوراً: «اذا هجرت هذا البيت يوماً فاعلموا انني فعلت ذلك

لاني مللت البقاء فيه بفم محروق دوماً». وكان يقول بانهم لا يطبخون غذاء شهياً ومتنوعاً إلا حين يتناول مليناً لتنظيف معدته ويكون عاجزاً عن أكل الطعام، وكان موقناً ان هذا التدبير هو مؤامرة غادرة من زوجته، حتى انه لم يعد ينظف معدته بدواء مُسهل إلا اذا تناولت مُسهلاً معه.

ولضجرها من سوء تقديره، طلبت منه هدية فريدة في عيد ميلادها: ان يقوم باداء الاعمال البيتية ليوم واحد. فوافق فرحاً، وتولى ادارة البيت فعلاً منذ الفجر. قدم فطوراً رائعاً، لكنه نسي انها لا تحب البيض المقلي ولا تتناول القهوة بالحليب. ثم أعطى التعليمات لاعداد غذاء عيد ميلاد لثمانية مدعوين واوعز بترتيب البيت، ورغم اجتهاده لتسيير الشؤون المنزلية خيراً منها، فقد اضطر للاستسلام دون خجل قبل منتصف النهار. اذ ادرك منذ اللحظة الاولى انه لا يملك ادنى فكرة عن مكان وجود أي شيء وخصوصاً في المطبخ وقد تركته الخادمات يقلب كل شيء ليبحث عما يريده، اذ شاركن كذلك في اللعب. وحتى الساعة العاشرة لم يتلقين الاوامر لاعداد الغذاء، لان تنظيف البيت لم يكن قد انتهى، كما لم يكن قد تم ترتيب غرف النوم بعد، وبقي الحمام دون تنظيف، ونسي وضع الورق الصحي في مكانه، وكذلك استبدال شراشف الاسرة، كما نسي ان يبعث الحوذي لاحضار الأولاد، وخلط بين مهمات الخادمات؛ فأمر الطاهية بترتيب الاسرة وبعث عاملات خدمة المائدة لطهي الطعام. وفي الساعة الحادية عشرة، حين كان المدعوون على وشك الوصول، كان البيت ما يزال غارقاً في الفوضى، مما دفع فيرمينا داثا إلى تولي القيادة وهي منفجرة بالضحك، ولكنها لم تفعل ذلك بزهو الانتصار الذي رغبته، بل بشفقة تهز اعماقها لعدم جدوى زوجها في الشؤون البيتية. وتنفس هو من الحرج بحجته الدائمة: «لم يكن الأمر سيئاً على الاقل إلى الدرجة التي ستصلين اليها لو انك حاولت معالجة المرضى». لكن الدرس مضى بلا فائدة لكليهما. فمع تقدم السنين وصلا، عبر سبيلين مختلفين، الى النتيجة الحكيمة بانه ليس ممكناً لهما العيش معاً بطريقة اخرى، وليس ممكناً لهما ان يحبا بعضهما بشكل آخر: اذ ليس في هذه الدنيا ما هو أصعب من الحب.

في خضم حياتها الجديدة، رأت فيرمينا داثا فلورينتينو اريثا في مناسبات عامة عديدة، وكانت تراه اكثر كلما ترقى في عمله، لكنها تعلمت ان تراه بشكل طبيعي جداً، حتى انها نسيت مصافحته اكثر من مرة نتيجة سهوها عنه. وكثيراً ما كانت تسمع أحاديث عنه لان موضوع صعوده الحذر والواثق في مناصب ش. ك. م. ن كان موضوعاً شائعاً في عالم الأعمال. وكانت ترى إلى تحسن مكانته، والى الثناء على خجله كاحجية نائية، وكان مظهره يتحسن مع زيادة طفيفة في وزنه، كما ان بطء السن كان يناسبه، ثم انه عرف كيف يحلّ بوقار مشكلة

الصلع المدمرة. والاشياء الوحيدة التي بقيت فيه متحدية الزمن والموضة هي ملابسه القاتمة، والسترات التي كانت موضة زمن مضى، والقبعة الوحيدة، وربطة عنق الشاعر المصنوعة من شرائط كان يأخذها من دكان أمه، والمظلة المشؤومة. وقد اعتادت فيرمينا داثا على رؤيته بطريقة مختلفة، إلى ان لم تعد تربط بينه وبين المراهق الهزيل الذي كان يجلس متنهداً من اجلها تحت الاوراق الصفراء المتطايرة في حديقة البشارة. ولكنها لم تره أبداً بلامبالاة، وكانت تفرح دوماً للاخبار الطيبة التي تسمعها عنه، لانها كانت تهدىء شيئاً فشيئاً من شعورها بالذنب.

ومع ذلك، وحين ظنت انها قد محته تماماً من ذاكرتها، عاد للظهور من حيث لم تكن تنتظره متحولاً إلى شبح لأشواقها. كانت قد هبت عليها أولى نسائم الشيخوخة حين بدأت تشعر ان شيئاً لا سبيل إلى اصلاحه قد حدث في حياتها كلما سمعت قصف الرعد قبل المطر. انه الجرح الذي لا يندمل لذلك الرعد المتوحد والصخري الدقيق في موعده، الذي كان ينفجر كل يوم من ايام تشرين الأول في الساعة الثالثة مساء في جبال فييانويفا، والذي كانت ذكراه تتجدد مع مرور السنين. فبينما كانت الذكريات الجديدة تختلط في ذاكرتها بعد أيام من حدوثها، كانت ذكريات الرحلة القديمة إلى مقاطعة ابنة الخال هيلديبراندا تصبح معاصرة حتى لتبدو وكأنها حدثت بالامس، وذلك بقدرة الحنين المضللة. صارت تتذكر ماناوري، البلدة الجبلية، بشارعها الوحيد المستقيم والأخضر، وعصافيرها بشير الفأل الطيب، وبيت المخاوف حيث كانت تستيقظ وقميصها مضمخ بدموع بيترا موراليس الغزيرة، التي ماتت حباً قبل ذلك بسنوات طويلة على السرير نفسه حيث تنام. صارت تتذكر طعم جوافة ذلك الزمن التي تبدل مذاقها منذ ذلك الحين، والتي كان حفيف نذيرها الزخم يختلط بحفيف المطر، كما اخذت تتذكر امسيات سان خوان دي تيسير الزبرجدية، حين كانت تخرج لتتمشى مع كوكبة بنات خؤولتها الصاخبات وهي تضغط اسنانها حتى لا يقفز قلبها من فمها كلما اقتربت من مركز التلغراف. باعت بيت أبيها بأي ثمن لانها ما عادت تحتمل آلام المراهقة، ولا مرآى الحديقة المقفرة من الشرفة، ولا أريج الياسمين في الليالي الحارة، ولا هول صورتها بزي سيدة قديمة في مساء ذلك اليوم من شهر شباط، وهو نفس اليوم الذي حسمت فيه مصيرها. واينما قلبت ذاكرتها في ذلك الزمن كانت تصطدم بذكرى فلورينتينو اريثا. ومع ذلك، فقد كانت تمتلك من الصفاء دوماً ما يجعلها تدرك بانها ليست ذكريات حب أو ندم، وانما احساس مكدر يترك لها بقايا دموع. ودون ان تدري، كانت مهددة بالوقوع في مصيدة الشفقة التي أضاعت عدداً كبيراً من ضحايا فلورينتينو اريثا الغافلات.

تشبثت بزوجها. وجاء ذلك في الفترة التي بدأ يحتاج اليها اكثر من أي وقت آخر، اذ كان

يكبرها بعشر سنوات، وينطلق وحده متعثراً في ضباب الشيخوخة، اضافة لكونه رجلاً وأشد ضعفاً. وانتهيا إلى معرفة بعضهما حتى أصبحا قبل مرور ثلاثين سنة على زواجهما وكأنهما كائن واحد مشطور إلى نصفين، وصار القلق يساورهما لكثرة ما أصبح كل منهما يعرف ما يدور بخلد الآخر، وللحديث المضحك بان يسبق أحدهما إلى النطق بما كان سيقوله الآخر. لقد صرّفا معاً خلافات سوء التفاهم اليومية، والاحقاد الآنية، والقذارات المتبادلة، وبروق مجد السعادة الزوجية الخرافية. كان ذلك هو الزمن الذي أحبا فيه بعضهما على أحسن وجه، دون تسرع ولا مبالغة، وقد وعيا انتصاراتهما الباهرة على الخصوم وباركاها. وكان على الحياة ان تمدهما بمزيد من البراهين الفانية، ولكنها لم تعد ذات نفع لهما: فقد كانا على الضفة الاخرى.

أُعدّ برنامج حافل بالنشاطات العامة بمناسبة الاحتفال بمطلع القرن الجديد، وأجدر هذ النشاطات بالذكر هي الرحلة الأولى بالمنطاد، ثمرة مبادرة من مبادرات الدكتور خوفينال اوربينو التي لا تنضب. اجتمع معظم اهل المدينة عند شاطىء الارسينال لا بداء دهشتهم من ارتفاع بالون الحرير الهائل، الملون بألوان العلم الوطني في الجو، ليحمل أول بريد جوي إلى سان خوان دي لاثيناغا، على بعد حوالي ثلاثين فرسخاً بخط مستقيم إلى الشمال الشرقي. كان الدكتور خوفينال اوربينو وزوجته، اللذان عرفا متعة الطيران من قبل في معرض باريس الكوني، هما أول من صعد إلى حجيرة المنطاد المصنوعة من الخيزران، ثم صعد معهما مهندس الرحلة الطائرة وستة مدعوين آخرين كانوا يحملون رسالة من الحكومة المحلية إلى السلطات البلدية في سان خوان دي لاثيناغا، يسجلون فيها للتاريخ ان تلك الرسالة هي أول بريد ينتقل عبر الأجواء. أحد صحفيي الدياريو دي كوميرثيو سأل الدكتور خوفينال اوربينو ما هي آخر كلماته اذا ما قضى نحبه في المغامرة، فلم يتر وهذا للتفكير بالجواب الذي سبب له شتائم كثيرة، اذ قال:

ـ أظن بان العالم باسره سيشهد تغير القرن التاسع عشر، باستثنائنا نحن.

وفيما المنطاد يرتفع، أحس فلورينتينو اريثا الضائع بين الحشود الساذجة التي تنشد النشيد الوطني، بانه يشترك بالرأي مع تعليق سمعه من أحدهم وسط الضجة بان تلك المغامرة ليست مناسبة لامرأة وخصوصاً امرأة في سن فيرمينا داثا. ولكنها لم تكن بالمغامرة الخطيرة على اي حال. أو انها لم تكن على الأقل خطرة بقدر ما هي مؤثرة. لقد وصل المنطاد دون تيارات هوائية معاكسة إلى مستقره، بعد رحلة هادئة في سماء زرقاء إلى حد غير معقول. طاروا طيراناً طيباً على ارتفاع قليل، تدفعهم ريح هادئة ومواتية، فوق ذرى الجبال المكللة بالثلج أولاً، ثم فوق مستنقع ثيناغاغراندي الفسيح.